حين يكون الصمت بلاغة

د/ إبراهيم عبد الفتاح رمضان

كلية الآداب – جامعة المنوفية

حين يكون الصمت بلاغة

إبراهيم عبد الفتاح رمضان
قسم البلاغة – كلية الآداب – جامعة المنوفية
البريد الإلكتروني :iabdalbaky@qu.edu.sa

الملخص :
الكلام/ الصمت ثنائية جدلية لم ينتهِ النقاش حولها، بين مؤيد للكلام تلك الهبة الربانية التي امتن الله بها على عباده. ومؤثرٍ للصمت على الكلام، لما في ذلك من تحقيق فوائد دينية، ومكاسب سياسية. وبين هذين الاتجاهين يوجد اتجاه يجمع ما قيل في كلا الأمرين دون تعصب لأحدهما. وهذه الدراسة تطمح إلى الإجابة عن عدة أسئلة:
–ما أهمية الصمت في التواصل البشري؟
–هل للصمت دلالة معينة تفهم حين يصمت من يُنْتَظَر منه الكلام؟
–ما العلاقة بين الحجاج والصمت؟
–هل يكون الصمت بلاغة؟
–ما أثر لغة الجسد في توكيد عملية الصمت؟
ونستطيع أن نقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة. والمبحث الأول بعنوان: دلالات الصمت. والمبحث الثاني بعنوان: الصمت والحجاج. والمبحث الثالث بعنوان: الصمت ولغة الجسد.

الكلمات المفتاحية: الصمت – السكوت- بلاغة السكوت- الحجاج بالصمت- دلالات الصمت

When silence is eloquent

Ibrahim Abdel Fattah Ramadan
Rhetoric Department - Faculty of Arts - Menoufia University
E-mail: iabdalbaky@qu.edu.sa

Abstract :
Speech-Silence is a debatable dialectic duality: there is a controversy between the proponents of the divine gift of speech and those who prefer silence to speech for achieving both religious and political gains. Still, there is a third compromising attitude, that impartially combines the two stances.
The current study aspires to answer the following questions:
1. What is the importance of silence in human communication?
2. Does attributable silence have specific denotation?
3. Can silence be eloquence?
The present study can be divided into three chapters in addition to the introduction and the conclusions.
Chapter 1: The denotations of silence
Chapter2: Silence and debate
Chapter3: Silence and body language

Key words: Silence - Silence - Rhetoric Of Silence - Pilgrims In Silence - Signs Of Silence

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه والتابعين.

وبعد

فثنائية الكلام/ الصمت جدلية لمّا ينتهي النقاش حولها، بين مؤيد للكلام تلك الهبة الربانية التي امتن الله بها على عباده، في قوله عز اسمه: (الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنْسَانَ {3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4})، والتي بها عبر كل قوم عن أغراضهم. ومؤثرٍ للصمت على الكلام، لما في ذلك من تحقيق فوائد دينية، ومكاسب سياسية. ولم ينتهِ الحديث حول هذه الثنائية منذ أن بدأ فيها حتى عصرنا الحاضر. ويبدو أن اختلاف جهة النظر هي التي تجعل بعض الكتاب يؤثرون الكلام، وبعضهم يؤثرون الصمت. وكان التأليف حول هذه الثنائية قد بدأ حول القضية في القرن الثالث الهجري، ومن حسن الطالع أن نرى في هذا القرن من يتعصب للكلام كالجاحظ الذي سمّى أحد كتبه: البيان والتبيين. وفي رسائله يؤلف رسالتين قد تبدوان متقابلتين، لكنهما –عند تدقيق النظر– متكاملتان؛ فكان عنوان إحداهما: "كتمان السر وحفظ اللسان"(١)، وعنوان الثانية: تفضيل النطق على الصمت (٢). وفي الرسالة الأولى تحدث عن فوائد الصمت، وحذر من فلتات اللسان التي قد تهلك الإنسان، وساق أدلة كثيرة على ضرورة الصمت؛ فبين أن الصمت مغالبة للهوى، والهوى نقيض العقل، وهو دافع إلى إذاعة الأسرار، والصمت له صلة بالعقل، وإنما سمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل اللسان ويخطمه. والصمت يجعل المرء ينشغل بنفسه عن الآخرين. وعلى الرغم من دفاعه في هذه الرسالة عن الصمت، إلا أنه كان متعصبًا للنطق، من خلال رسالته الأخرى، وأيضًا من خلال كتابه: البيان والتبيين. وفي المقابل نرى من يتعصب للصمت ويدعو إليه كابن أبي الدنيا الذي سمّى كتابه: الصمت وآداب اللسان.

(١) رسائل الجاحظ: الرسائل الأدبية، الجاحظ، ص ص ١١: ١٤، ت: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢م.

(٢) السابق، ص ص ٥٥: ٥٨.

وكلاهما من كتَّاب القرن الثالث فالجاحظ توفي في سنة ٢٥٥ه. وابن أبي الدنيا توفي ٢٨١هـ. وبين هذين الاتجاهين يكمن اتجاه ثالث يجمع ما قيل في كلا الأمرين دون تعصب لأحدهما وهو ما نجده عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في عيون الأخبار. وليس من وكد هذه الدراسة استقصاء القول في أيهما أفضل، ولا أن تناقش رأي القائلين بأحدهما، ولكنها تطمح إلى الإجابة عن عدة أسئلة:

-هل ثمة فرق بين الصمت والسكوت؟

-ما أهمية الصمت في التواصل البشري؟

-هل للصمت دلالة معينة تفهم حين يصمت من يُنْتَظَر منه الكلام؟

-ما العلاقة بين الحجاج والصمت؟

-هل يكون الصمت بلاغة؟

-ما أثر لغة الجسد في توكيد عملية الصمت؟

ومن هنا نستطيع أن نقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة يتناول التمهيد الحديث عن تعريف الصمت والسكوت والفرق بينهما، ومواقف لا يكون فيها إلا الصمت، والصمت وسيلة تعليمية، والصمت والتواصل.

ويكون المبحث الأول بعنوان: دلالات الصمت. والمبحث الثاني بعنوان: الصمت والحجاج أو حجاجية الصمت. والمبحث الثالث بعنوان: الصمت ولغة الجسد.

وإني لأرجو أن تحقق هذه الدراسة غايتها التي كتبت من أجلها، وهي فهم طبيعة الصمت في المواقف الحياتية التي يتعرض لها البليغ، فيصمت في موقف الصمت، ويتكلم في موقف الكلام، فيقدر لكل حالة قدرها، أو يكون سلوكه اللغوي مطابقًا لمقتضى الحال التي هو فيها، فيكون فاهمًا لسياقات الصمت، وسياقات الكلام، وسياقات الصمت المشفوع بحركة الجسد، أو غير ذلك. أو باختصار حين يكون الصمت بلاغة.

وأسأل الله التوفيق والسداد.

التمهيد:

لم تغب دراسة الصمت عن الدرس البلاغي؛ فقد تعرض لها ابن المقفع حين سئل عن البلاغة فقد ذكر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في البيان والتبيين أنه "قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ... فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة" (١). وعقد ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) بابًا في كتابه: العمدة سماه باب الإشارة، وعدّه من "غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملاً ومعناه بعيد من ظاهر لفظه" (٢). ويدرج ضمن الإشارة التعريض والتلويح والكناية والتمثيل والرمز واللغز والمحاجاة والتعمية والحذف والتورية (٣). وألمح إليه عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) في إطار حديثه عن الحذف الذي: "هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْر، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن" (٤).

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١١٥-١١٦، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م.

(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٣) كنت قد تناولت أنواع الإشارة جميعا عند ابن رشيق وغيره في بحث بعنوان: الغموض الفني في البلاغة العربية؛ وذكرت عشرين فنًّا بلاغيًا يقصد فيها المتكلم إلى الإغماض على المتلقي، على أن الأصل أن المتكلم ينطق ليبين لا ليغمض. ينظر: د. إبراهيم عبد الفتاح رمضان، الغموض الفني في البلاغة العربية، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سبتمبر، ٢٠٠٩م.

(٤) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

بين الصمت والسكوت:

هل هناك فرق بين الصمت والسكوت؟ لقد فسرت المعاجم الصمت بالسكوت، وفسروا السكوت بترك الكلام. قال الراغب: "السُّكُوتُ مختصّ بترك الكلام، ورجل سِكِّيتٌ، وسَاكُوتٌ: كثير السّكوت" (١). وفي لسان العرب: "وأصمت: أطال السكوت. والتصميت: التسكيت. والتصميت أيضا: السكوت. ورجل صميت أي سكيت"(٢). ونقل المباركفوري في تحفة الأحوذي قول الراغب: "الصمت أبلغ من السكوت؛ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة له للنطق وفيما له قوة للنطق، ولهذا قيل لما لا نطق له الصامت والمصمت، والسكوت يقال لما له نطق، فيَترك استعماله"(٣).

وذكر النيسابوري في تفسيره أن "ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت –وهو أعمها– حتى إنه يستعمل فيما ليس يقوى على النطق، كقولهم: «مال ناطق أو صامت». والسكوت وهو: ترك الكلام ممن يقدر على الكلام. والإنصات وهو: السكوت مع استماع قال تعالى:[فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا] (الأعراف:٢٠٤). والإصاخة وهو: الاستماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد"(٤). وذكر البعض فروقًا بين الصمت والسكوت: أن الصمت سكوت طويل. والسكوت للعاقل أما الصمت فللعاقل وغيره. وهناك فروق أخرى لا تسلم من نقد. وليس من وكد هذه الدراسة استقصاء هذه الفروق واحدًا واحدًا. ولكنها تشخص إلى المهمة التي أقيمت لأجلها، وهي بلاغة الصمت؛ حين يكون الصمت فنًّا بلاغيًّا يغني عن الكلام، ويحدث به البيان، وينتج عنه التفهيم والتبيين، فيكون سياسة في القول

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (صمت)، طبعة دار صادر، ٢٠٠٣م.

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ٧/ ٢٠٤، ضبطه وراجع أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، سوريا، د.ت.

(٤) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، سورة طه، ٤/ ٥٣٧، دار الكتب العلمية، ١٤١٦ه.

يلجأ إليها المتكلم اختيارًا ليوحي إلى المتلقي بطاقة تعبيرية لم تكن لتتحقق إذا تكلم وأبان. ولذلك ستعتمد هذه الدراسة أنه لا فرق بين الصمت والسكوت.

جدلية الكلام والصمت(١):

يظل التفاضل بين الكلام والصمت جدلية، تكتسب حرارتها من مناقشيها في كل جيل، وعند كل أديب، فأحدهم يتحمس للكلام، والآخر يتحمس للصمت، وحسب اتجاه الرؤية التي ينظر منها الكاتب يكون تفضيله لأحدهما على نقيضه، وقد يأتي كاتب واحد ليظهر مقدرته الأدبية فيسوق الأدلة على أفضلية أحدهما، ثم يتحول لنقض هذه الأدلة، وسوق أدلة أخرى تخالفها، لتبين أفضلية العنصر الثاني، على غرار ما نراه عند الجاحظ في رسائله.

على أن هناك مواقف في الحياة ينفرد فيها الصمت، ولا يحسن فيها الكلام، وأما الكلام فهو الأصل في قضية التواصل بين البشر، ويتضمن الصمت في داخله إنْ في مستواه اللغوي، أو في مستواه الخطابي، فلا كلام يخلو من صمت. بل إن هناك من المواقف ما يكون الصمت فيها مرجَّحًا عن الكلام، ففي أوقات الجزع والحزن الشديد يكون الصمت الجنائزي في القبور، وفي مواقف الوفاء لحق الميت الذي يجلّه الحضور، ويكون الصمت أيضًا عندما يطلب من الجميع الصمت لمدة دقيقة حداد على روح هذا العزيز، بل في أوقات الفرح الشديد ينعقد اللسان فيكون الصمت، وقد يصاحبه بكاء أو لا يصاحبه، ومن مواطن الصمت الاستماع إلى خطبة الجمعة، والعيدين، والزواج، والصلح، والترشح في الانتخابات وغيرها من الخطب التي يكون فيها الحضور منصتين صامتين، وهناك من يجعل الصمت اختيارًا له كما في حال الرهبان في الأديرة، والصوفية في عزلتهم.

(١) هناك بحث للدكتور عبد الله بن سالم الخلف بعنوان: جدلية الصمت والكلام في التراث العربي، منشور في مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، السعودية، مجلد ٣، العدد٢، ٢٠١٠م.

وهناك من ينعقد لسانه في موطن البيان فيكون صمته حُبْسة لهيبةِ المنبر أحياناً، أو هيبة من يستمعون إليه.

فإذا دخلنا إلى ميدان التفاعل في الخطاب بين المتكلم والمتلقي وجدنا للصمت قيمة كبرى؛ فلا يمكن أن يكون الجميع متكلمين في آنٍ واحد، فحينما يتكلم أحد يصمت الآخر؛ ليفهم عنه ما يقول، ثم يرد عليه، فيصمت من كان متكلما؛ ليفهم من الآخر عن طريق تبادل الأدوار. ويحضر الصمت في مجالات عدة: منها مجال التعليم؛ فإذا تكلم المعلم صمت الطلاب؛ ليفهموا، وإذا سأل المعلم سؤالا صمت حتى يجيب الطالب، وقد يأمر المعلم بالصمت لممارسة نشاط كالتفكير في حلّ مسألة، أو للقراءة الصامتة، وقد يمارس الطالب الصمت لعدم العلم، أو عدم فهم السؤال.

وفي المجال الأدبي نرى الصمت يزين الإلقاء للتفكر في معنى الأبيات، أو للاستراحة، أو غير ذلك، كما نراه في النقاط البيضاء التي توجد في الصفحة الأدبية، لتقول أشياء لا يقوم التعبير عنها بنفس الطاقة التعبيرية التي تصل إلى القارئ من خلال النقاط. وفي العزف الموسيقي يصمت بعض العازفين إذا أحس بأن هناك خطأ موسيقيا، أو يصمت ليتلقى تصفيق المعجبين بعزفه. "والأطرف من هذا أن يتم الحديث منذ سنة ٢٠٠٢م عن آلات موسيقية "صامتة "silent Instruments" لا يُسمَع صوتُها، ولا يدرك عند العزف عليها إلا تفاعل العازفين مع "النوتة"، بما يبدونه من حركة، وما تظهر عليهم من ملامح"(١).

وقس على ذلك الصمت في مجالات مختلفة كالصمت في السياسة بما يسمى الأغلبية الصامتة، أو عند تكميم الأفواه. وفي مجال القانون، وفي مجالات مختلفة تجد الصمت متغلغلا في دروب الحياة بقوة؛ لما له من طاقة لا تكون للكلام والنطق والتبيين.

(١) محمد الشيباني، الصمت وتأويله، ١١١، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية: (الصمت) المقامة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، إبريل ٢٠٠٧م.

ويجدر بنا أن نضع عددا من المحددات لدراسة الصمت قبل البدء بها، فمن هذه المحددات نذكر ما يلي:

١- **ليس كل صمت بيانًا:** من الأمور المعلومة بداهة أن هناك صمتًا يعد من أرقى سبل البيان، وصمتًا هو ضد البيان، وهو الصمت الذي يعجز فيه صاحبه عن البيان وقت حاجته إليه، إما لعطب في جهاز النطق لديه، أو لرهبة الموقف الذي وُضِع فيه المتكلم. وفي تراثنا يسمون هذا النوع من الصمت العي والحصَر. ووضع الجاحظ في البيان والتبيين بابا سماه: باب عيوب البيان. عدد فيه عيوباً كثيرة منها: العي، واللثغة والفأفأة والتمتمة واللفف واللجاجة والحبسة والحكلة والنحنحة والسعلة وسقوط الأسنان وتنافر الحروف والكلمات. ومن الأبيات التي ذكرها، قوله: "وهذا كقول بشار الأعمى:

وعيّ الفعال كعي المقال... وفي الصمت عيّ كعي الكلم"(١).

ويعود الجاحظ فيقول: "وقالوا في الصمت كقولهم في المنطق. قال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أجمل بالفتى... ما لم يكن عيّ يشينه
والقول ذو خطل إذا... ما لم يكن لب يعينه"(٢).

ويلاحظ في كلام الجاحظ السابق كله أنه يتحدث عن الصمت في إطار الكلام، أي يتحدث عن أحد النقيضين في حال تعالقه مع الآخر، فهو لا يخص أحدهما لذاته. ومن خلال الوقوف على مرامي حديث الصمت نستطيع أن نقسم الصمت إلى قسمين: صمت اضطراري، وصمت اختياري. فالصمت الاضطراري هو صمت نشأ عن تعطل آلة الكلام -وهي اللسان- بعلة كالخرس مثلا، أو لسبب عارض كالرهبة في موقف معين، أو سبب مستمر كالمرض الذي يصيب الإنسان في فترة من فترات حياته، فيمنعه من الكلام، أو لأي سبب آخر يكون داعيًا إلى الصمت الاضطراري، ومثل هذا

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٤، ت: عبد السلام هارون، مرجع سابق.
(٢) السابق، ١/ ٥.

النوع من الصمت له طرقه التي يعالج بها، وله طرق أخرى لدراسته، في علم التخاطب، أو علم النفس، أو التدخل الجراحي أحيانا، أو غير ذلك.

أما الصمت الاختياري: فهو ذلك الصمت الذي يكون فيه صاحبه –في موقف ما– مخيَّرًا بين الكلام والصمت؛ فيختار الصمت بدلا من الكلام؛ لما يراه في نفسه من أن الصمت فيه طاقة تعبيرية، وتبيينية تفوق الكلام والنطق. إن المتكلم الذي صمت كان بين خيارين؛ ففضل أحدهما على الآخر عامدًا وقاصدًا؛ ليحدث نوعًا من الصدمة لدى المتلقي؛ فقد كان ينتظر منه الكلام فإذا هو صامت لا ينطق، ثم من خلال قرائن في هذا الصامت يفهمها المتلقي، يدرك مقصود هذا الصامت، ويعرف مراده، وما يكمن وراء هذا الصمت الناطق من أغراض رمى إليها. إن الصمت في هذه الحالة نوع من التواصل بغير كلام، وبيان بغير لسان، وتوضيح بلا لغة، فترى الشخص الذي أمامك أتم ما يكون بياناً إذا لم ينطق –على حد قول عبد القاهر– وأكمل ما يكون بياناً إذا لم يبن. ونقل أحمد الجوة تساؤلا عن فان دان هافيل يقول فيه: "هل يمكن أن نعتبر الصمت عملية خطابية، واعية أو غير واعية، تظهر في نص من النصوص، وتحيل مباشرة على التلفظ؟" ثم يشير الجوة إلى أن هافيل "يعتبر الصمت مفهوما إشكاليا بامتياز؛ لأنه يفتقد قاعدة محسوسة على المستوى اللساني، ولهذا يستعمله في معنى عدم إنجاز عمل تلفظي قد يوجد، أو قد يلزم وجوده في وضعية معطاة"(١).

٢- **<u>الصمت في موضعه أنفع من الكلام في موضعه</u>**: من المعلوم أن اللغة هي رموز يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والبلاغة الإيجاز، ومن المركوز في الطبع أنه إذا استوى الكلام وتركه فتركه أولى(٢). وبالتالي نجد أن ما أغنى فيه الصمت عن الكلام هو أولى، وما أغنى فيه قليل

(١) الصمت: أنواعه ووظائفه في الشعر العربي الحديث، أعمال الندوة العلمية الدولية: الصمت، ٢٨، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، أحمد الجوة، ٢٠٠٧م.

(٢) انظر: الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/ ١٨٥، ت: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

الكلام عن كثيره فهو أولى. فالسكوت عليه مدار البلاغة، وإن البليغ من يستطيع تمييز مواضع الكلام، ويميز -كذلك- الحالات الباعثة عليه من مواضع السكوت، والحالات الموجبة له، ولذلك يعاب الكلام في موضع السكوت، مثلما يعاب السكوت في موضع الكلام. يقول الجاحظ: "اعلم أنّ الصمت في موضعه ربّما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه، وعند إصابة فرصته. وذاك صمتك عند من يعلم أنّك لم تصمت عنه عيّا ولا رهبة"(١). ولِمَا للصمت من هيبة يلقيها على الصامت، الذي يقدر على الكلام، ويتركه اختيارا، ولما فيه من فضيلة الاحتراز عن الخطأ تجاه المستمع، ولما فيه من الاحتفاظ بمكانة الصامت. إلى فوائد كثيرة أخرى تكمن في أفضلية الصمت في موضعه على الكلام في موضعه. فمتى فهم المتلقي الرسالة التي يريد المتكلم توصيلها، فالأفضل والأحسن عدم التصريح بها.

٣- **<u>لابد من دليل على أن الصمت مقصود</u>**: أشرت -قبل ذلك- إلى أنه ليس كل صمت يعدّ بيانا، وإنما الصمت المقصود، الصمت الذي كان صاحبه يقدر على الكلام وقت أن صمت ثم اختار الصمت على الكلام، إن طبيعة الصمت تكمن في أن شخصًا ينتجه ثم يتوجه به إلى آخر نسميه متلقيًا أو مستقبِلا، وهذا الصمت تسبقه أقوال، وتتلوه أقوال أيضًا بل قد تتخلله أقوال – كذلك- كما قد يصاحبه حركات للجسد، كالحمرة والخجل، أو الإشارة باليد، أو تقطيب الوجه، أو غير ذلك. وهذه كلها قرائن دافعة للمتلقي إلى تأويل الصمت.

والقرائن تنقسم إلى قرائن حالية، وأخرى لفظية؛ فقرائن اللفظ تكون أكثر توضيحًا لهذا الصمت. والمتلقي إذا استطاع أن يقرأ هذه القرائن تمت الإبانة بالصمت، وأصبح صمت المتكلم دالا بل يصير صمتا بليغا. أما إذا لم

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ: الرسائل السياسية، ٧٩، ت: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢م.

يوفق المتلقي لتأويل الصمت؛ لعدم وجود القرينة، أو لأنها قرينة ضعيفة لا تفك شفرات هذا الصمت، أو لغياب عنصر مهم يساعد في فك الشفرة حيث تكون القرينة موجودة وقوية لكن غاب فيها عنصر مهم كغياب التواضع بين الصامت والمتقبل عندئذٍ يفقد الصمت قيمته، ويصبح ضربًا من التعمية لا يقدر المتلقي على فك شفرته. وهنا قد يكون هذا الغموض مشتركًا بين الطرفين (الصامت والمتلقي) أو يكون العيب في الصامت الذي لم يضع للمتلقي قرينة ترشده إلى المغزى من الصمت، أو وضعها وكانت ضعيفة لا توضح، أو يكون العيب في المتلقي إذا لم لديه القدرة على فك شفرة الصمت، أو كانت القرينة تحتاج إلى توظيف جيد فلم يستطع توظيفها.

٤-بين الصمت اللغوي والصمت الخطابي:

الصمت الذي يقع في حدود الجملة لا يجاوزها يسمى صمت اللغة؛ وهو نوع من صمت اصطلح عليه باسم الحذف ويكون صمتًا في الأصوات والمفردات والتراكيب(١). ويشترط فيه العلماء وجود القرينة أيضا، وتوسع ابن هشام فذكر له ثمانية شروط(٢). وعدد التهانوي صورا من الحذف، منها:

-الاقتطاع: وهو حذف بعض الكلمة.

-والاكتفاء: وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما.

-والاحتباك: وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول.

---

(١) د. عبد الله البهلول، الصمت سياسة في القول، ٨٤، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية التي أقيمت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس تونس، وكان عنوانها: الصمت، ٢٠٠٧م.

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٨٥٣، ت: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م. وكنت قد ناقشت هذه الشروط في كتابي: بلاغة الحذف في القرآن الكريم، ص ص ٣١-٣٥. وبينت أن الشروط التي اشترطها ابن هشام محل خلاف، وأن هذه الشروط الثمانية -ما عدا الشرط الأول وهو وجود الدليل على المحذوف- كلها شروط للمحذوف وليس في عملية الحذف نفسها. (د. إبراهيم عبد الفتاح رمضان، بلاغة الحذف في القرآن الكريم، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م).

-والاختزال: وهو ما ليس واحدا مما سبق، وهو أقسام لأن المحذوف إما كلمة: اسم أو فعل أو حرف. وإما أكثر من كلمة: فمنه حذف المضاف: واسأل القرية. وأصلها أهل القرية.

يقول التهانوي: "وسمّاه -أي الحذف- ابن جنّي شجاعة العربية، وهذا المعنى أعمّ من معنى الصرفيين. وفي الإتقان هو أنواع: الاقتطاع والاكتفاء والاحتباك ويسمّيه البعض بالحذف المقابلي أيضا. والرابع الاختزال فالاقتطاع حذف بعض الكلمة، والاكتفاء... إلخ"(١).

وأما الصمت في الخطاب فهو "خطة أو استراتيجية خطابية بها يدرك المتكلم بالصمت ما عز مناله بالكلام"(٢). والصمت لابد أن يكون صادرا من متكلم بليغ، ليكون بليغًا، حيث يدرك هذا البليغ أن العبارة قاصرة عن تبليغ ما يريد توصيله لمتلقيه، على الرغم من استلزام المقام للكلام، وحاجته إليه، نجد هذا الصمت هو البديل للكلام، والحوار والخطاب. وقد عرف ابن المقفع البلاغة فقال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث..."(٣). فجعل السكوت بلاغة، كما يكون الاستماع بلاغة، وكما يكون الحديث بلاغة. وهذا هو المقصود ببلاغة الخطاب حيث يكون المقام مقام كلام، فيعدل الشخص عن الكلام إلى طريق آخر من طرق التوصيل هو الصمت، وهو يعلم ما يحمله هذا الصمت من شحنة تعبيرية قوية، تصلح أن تسد مسد الكلام، ليس هذا فحسب ولكن هي تفوق الكلام بلاغة، ولذلك كان عدوله إليها، ولو علم أنها لن تكون أقوى

(١) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ت: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

(٢) د. عبد الله البهلول، الصمت سياسة في القول، ٨٦، مرجع سابق.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١١٥، مرجع سابق. ونقل هذا التعريف الدكتور شوقي ضيف في كتابه: (الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، ١٤١، دار المعارف، ط١٣، د.ت).

تأثيرا من الكلام لما لجأ إليها. كما يجب أن نلحظ أن المتكلم الـذي صـمت وجد أن الصمت أبلغ من الكلام، فكان ركونه للصـمت موقفًـا اختياريـا، لا إجبار فيه. بل هو الذي اختار الصمت لما فيه من شحنة تعبيرية تعبر عن موقفه وتفوق طاقة الكلام لو أنه لجأ إليه. وسوف نقصر كلامنا على صمت الخطاب لأسباب منها: أن عنوان هذه الدراسة يستلزم ذلك. ومنها أنني قـد أشبعت الحديث في صمت الخطاب في كتابي: بلاغة الحذف فـي القـرآن الكريم.

المبحث الأول: الصمت ودلالاته

لا شك أن هناك تلازما بين الصمت والكلام، فلا يمكن فهم الصمت دون الحديث عن نقيضه وهو الكلام، والكلام يتخلله صمت؛ فليس من المعقول أن يظل المتحدث متحدثًا منذ أن يتعلم الكلام، ولا يصمت أبدا، كذلك لا يكون إنسان صحيح النطق فيصمت ولا يتكلم، بل قد ورد النهي عن الصمت اليوم كله(١). وفي البخاري: أن أبا بكر الصديق قال لامرأة حجت مصمتة: تكلمي؛ فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية فتكلمت(٢). فالصمت مكون أساس من مكونات الحوار، والمحادثات، والتواصل بين البشر. على أن الصمت قد يؤدي وظيفة لا يستطيع الكلام القيام بها، متى توفر له المقام المناسب، ودلت القرينة على أن هذا الصمت صمتٌ قد اختاره صاحبه على نقيضه وهو الكلام. ودلالات الصمت كثيرة لا يحيط بها الحصر، نظرا لتجدد أحوال المتكلمين/ الصامتين، والمقامات الداعية إلى الصمت والسكوت. تقول سيزا قاسم معددة معاني الصمت: "فالصمت طبقًا للمثل هو علامة الرضا، ولكنه يمكن أن يكون عكس ذلك، قد يدل على الرفض أو الاستعلاء، أو اليأس، أو الانهيار، أو الازدراء، أو التشفي، أو الشفقة، والصمت ليس الفراغ، أو انتفاء الكلام، بل قد يكون ستارًا يحجب عددًا كبيرًا من الرسائل، وقد يكون أبلغ من الكلام"(٣).

وسوف نشير إلى بعض المواقف التي كان للصمت فيها دلالة بلاغية. فمن دلالات الصمت:

-**<u>الرضا والقبول</u>**: فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا يا رسول

(١) محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين، ٦/ ٥٨٨، ، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.

(٢) السابق.

(٣) سيزا قاسم، عن الصمت والأدب، ٥٠٩،، عدد ٨١- ٨٢، مجلة فصول، مصر، صيف ٢٠١٢م.

الله وكيف إذنها قال أن تسكت" وفي رواية: والبكر يستأذنها أبوها في نفسها، وإذنها صماتها(١). ويلاحظ أن الرواية جاءت مرة بالسكوت، ومرة بالصمات، ويظهر جليًّا أن الصمت والسكوت هنا هو للرضا والقبول. إن البكر هنا تصمت؛ لما بها من الحياء. فإنها كانت تستطيع النطق والكلام، وليس لديها آفة تمنعها من الرد بالموافقة أو القبول، لكنها لجأت إلى الصمت اختيارا؛ ليكون صمتها أدل على موافقتها، وليكون هذا الصمت حافظًا لحيائها. تلك المرأة التي لم تَمُرَّ بهذه التجربة من قبل، إذا بها تخطب لرجل ستذهب إلى بيته تاركة بيت أبويها، فكان الصمت الاختياري سبيلها للتعبير عن الموافقة والقبول.

-**<u>الرفض والاعتراض</u>**: ليس السكوت والصمت يعني الرضا والقبول في كل حال، فإنه قد يكون للرفض، ومن ذلك ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا"، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ..."(٢). ومن خلال الحديث نرى أن سكوت النبي –صلى الله عليه وسلم– كان رفضًا لسؤال الصحابي، وقد سكت عن السؤال، ولم يجب السائل حتى سأل ثلاث مرات، ثم بيّن علة عدم رده على السائل، بيد أن إلحاح السائل كان شديدًا، حتى أنه كرر السؤال ثلاثًا. إن هذا الإلحاح يجعل المسئول في حرج، وهو مشرّع لو قال: نعم لوجبت، ولو وجبت لعجز الناس عن الوفاء بالحج في كل عام. إن سكوت النبي –صلى الله عليه وسلم– ليس كسكوت غيره، فالعلماء متفقون على أنه: "لا

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت، رقم الحديث: ١٤١٩، دار الخير، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) صحيح مسلم، كِتَاب الْحَجِّ، بَاب فَرْضِ الْحَجِّ مَرَّةً فِي الْعُمُرِ، رقم الحديث: ٢٣٨٨.

يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة"[١]. والنبي الكريم منزه عن التقصير في تبليغ الحق؛ لأنه مبعوث ليقوم الناس بالقسط؛ فهو لا يسكت عن منكر أبدا. ومن القواعد المقررة عند علماء الأصول كذلك أنه: "لا ينسب لساكت قول) واستثني من هذه القاعدة أن: "السكوت في معرض الحاجة بيان" [٢].

ومن أمثلة السكوت للرفض والاعتراض أيضا: ما فعلته ابنة أخي الراوي في قصة: صمت البحر[٣]. التي لم تنطق طوال القصة رفضًا لاحتلال النازية الألمانية لفرنسا، وما شهدته فرنسا من العنف والقتل والتدمير. فهذا سكوت وصمت طال على امتداد القصة كلها، لم تنطق الفتاة بكلمة، وسبب هذا الصمت هو الرفض والاعتراض. ولعل هذا الرفض يذكرنا بقصة بارتلبي وهي مسماة على اسم النساخ بارتلبي، شخصية الموظف النساخ في قصة هرمان ملفل(Herman Melvilla) وهو شخصية

---

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، ٥/ ١١٤، مرجع سابق. وينظر كذلك: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ١/ ١٨٩، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– لبنان.

(٢) د. محمد مصطفى الزحيلي، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، ١/ ١٦٠، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م. وهناك بحث بعنوان: قاعدة: لا ينسب لساكت قول ولكن السكوت في معرض الحاجة بيان وتطبيقاتها الفقهية، أحمد محمد السراج، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مجلد ٧، العدد ١٩، ص ص ٤٠٩– ٤٨٠.

(٣) فيركور، صمت البحر، ترجمة: وحيد النقاش، صدرت مع سداسية الأيام الستة لإميل حبيبي عن مأساة يونيو ١٩٦٧م في العدد ٢٤٦، من روايات الهلال، ١٩٦٩م. وهي من قصص المقاومة حين احتلت النازية الألمانية فرنسا، في سنة ١٩٤٠م، ومؤلف القصة تَبَيَّنَ أنه رسام وليس قصاصًا، وكانت هذه القصة أولى قصصه، وهذه هي قصة فرنسا المتألمة أمام القوة الغاشمة التي لم تخضعها ، ولم يقض العنف على فكرها الرفيع. والرواية صامتة بلا حوار، وهي تحكي قصة ضابط ألماني اسمه فرنر فون إبرناك أقام في بيت أحد الفرنسيين، وفي هذا البيت يوجد الرجل وابنة أخيه التي لم تتكلم بكلمة واحدة طوال الرواية معبرة عن رفضها للاحتلال الألماني لفرنسا، فعلى الرغم من محاولات الضابط الألماني الحديث مع ساكني البيت إلا أنها لم تتكلم كلمة واحدة، واكتفت بالصمت رفضًا، وبالنظرات التي كانت ترسل من خلالها رسائل. حتى قرر هذا الضابط الاستقالة من الجيش، والعودة إلى ألمانيا، عندها قال: وداعًا ردت عليه الكلمة لتكون أول وآخر كلمة تنطق بها هذه الفتاة التي رسم مؤلف القصة بها صورة لفرنسا الصامتة.

انعزالية تنأى عن العالم الخارجي وليس لها من غاية وهدف في الحياة سوى التواجد في مكان عمله، طوال أيام الأسبوع، بما فيما أيام العطل ونهاية الأسبوع. هذه الشخصية الرافضة لأداء أي شيء. لم يقل أبدًا من هو، ولا من أين جاء، وإذا ما كان له أقارب في هذا العالم؛ وعندما سئل أين ولد؟ أو أن يطلب منه عمل شيء، أو أن يحكي شيئًا ما عن نفسه، يجيب دائمًا قائلًا: أفضل ألا أفعل[١]. تقول سيزا قاسم عن قصة بارتلبي النساخ: "أرى أنها تعمق مأساوية الصمت وعدميته، وتذهب بنا إلى أغوار بالغة التعقيد من رفض الإفصاح والكلام. فهذه القصة سابقة زمانها في استشافها لتوحد الإنسان في المجتمع الحديث"[٢].

-**الهيبة والتوقير**: ومن دلالات الصمت أن يكون السبب فيه الهيبة والتوقير. إن الصمت هنا موقف يتخذه الصامت، موقف اختياري لا إجبار فيه، ولكنه اختيار واع يميل إليه، ويفعله الصامت، ومن أمثلة هذا الموقف ما رواه البخاري بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ النَّخْلَةُ"، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا"[٣]. وفي رواية عند مسلم: "قال ابن عمر وألقي في نفسي أو روعي أنها النخلة فجعلت أريد أن أقولها فإذا أسنان القوم فأهاب أن أتكلم فلما سكتوا..."[٤]. وفي الحديث

(١) هرمان ملفل، بارتلبي النساخ، ترجمة: زوينة آل تويّه، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، ٢٠١٠م. وعبارة: أفضل ألا أفعل متكررة في الرواية بشكل كبير. ويبدو أنها الكلمة الوحيدة التي يطلقها النساخ بارتلبي.

(٢) سيزا قاسم، عن الصمت والأدب، ٥١٢،، عدد ٨١- ٨٢، مجلة فصول، مرجع سابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحياء في العلم، رقم الحديث ١٢٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: مثل المؤمن مثل النخلة، رقم الحديث ٢٨١١.

بروايتيه نجد أن الصمت كان للحياء والهيبة، وسبب ذلك حداثة سنه في مقابل أسنان القوم، فاختار الصمت والسكوت على الكلام، وهذا موقف اختياري آثره ابن عمر هيبة من القوم وحياء.

-**الأدب العالي**: وقد يكون السبب وراء لجوء المتحدث في موقف معين إلى الصمت هو الأدب العالي الذي يمنعه من النطق بكلام لا يليق، فهو يسكت ترفعًا عن ذكر شيء ينافي ما تربى عليه من احترام لنفسه، ولغيره، ويلقي مهمة بيان كلامه إلى من هو من جنس السائل؛ ليزيل الحرج النفسي والأخلاقي. روت عائشة: "أن امرأة سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن غسلها من المحيض، فأخبرها كيف تغتسل، ثم قال: خذي فرصة من مسك فتطهري بها، قالت: وكيف أتطهر بها؟ فاستتر كذا ثم قال: سبحان الله! تطهري بها، قالت عائشة رضي الله عنها: فجذبت المرأة وقلت: تتبعين بها أثر الدم" رواه النسائي. وفي رواية مسلم: "... قالت عائشة واجتذبتها إليّ، وعرفت ما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت: تتبعي بها أثر الدم"(١). ومن الواضح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صمت هنا حياء ووقارا وأدبا إذ إن حديث النساء لا يليق أن يتحدث فيه، وهي أمور حساسة، وقد منع النبيَّ حياؤه من الجواب، فأشار إلى أزواجه كي يعلمنها، وهي بذلك أخبر وأعرف. واختياره للصمت اختيار مختار لما في الصمت من لواذ بحفظ اللسان عن الخوض في أمور لا تليق بمقامه، ما دام يجد من النساء من تقوم مقامه بتوضيح ما يخص هذه المرأة السائلة، وليس أي أحد يقوم مقامه هنا، فلو أن صحابيا تطوع فرد بدلا من النبي -صلى الله عليه وسلم- لكان الأمر مستهجناً؛ لأن الرجال لا يتكلمون فيما يخص النساء، فكانت زوجته هي المتكلمة والموضحة بدلا منه. فقد كان سكوته -صلى الله عليه وسلم- "استحياء عن التصريح، ففي بعض الموارد سكت النبي -صلى الله

(١) صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم،، رقم الحديث ٣٣٢.

عليه وسلم- عن التصريح بالحكم، وأجاب اعتمادا على فهم السائل بالكناية، حياء من التصريح، فيعرف السائل جوابه من إشارته"(١).

وشبيه بهذا الأمر الذي هو السكوت أدبًا ما ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار قال: "... عبد الله بن بكر المزنيّ قال: جاء رجل فشتم الأحنف فسكت عنه، وأعاد فسكت، فقال: والهفاه! ما يمنعه من أن يردّ عليّ إلّا هواني عليه"(٢). فالأحنف معروف عنه الحلم والأدب، ومشاتمة الرجل له إنما كانت من قبيل تحريضه على أن يسيء أدبه، ويرد عليه، لكن الأحنف كان عنده الثبات الانفعالي فلم يرد على الرجل، فكان سكوته أدبًا وحلمًا، مما دفع الرجل إلى التحسر حين عرف قدره الحقيقي، وأن سكوت الأحنف معناه عدم الاكتراث به.

الانقطاع والإفحام: ومن المواقف التي يكون فيها الصمت اختيارا لا مناص منه حين يكون انقطاعاً وإفحاما، وذلك يكون مع الأجوبة المسكتة، ومن أمثلته ما قاله الحجاج ليحيى بن يعمر حين سأله: "ما تقول في مدينة واسط؟ فقال له: ما أقول فيها وقد بنيتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك. فقال الحجاج: ما حملك على ما قلت؟ قال ما أخذ الله على العلماء من العهد ألا يكتموا الناس حديثًا. فقال له: ألم تخش سيف الحجاج؟ فقال: لقد ملأتني خشية الله جل وعلا، فلم تدع مكاناً لخشية سواه. فسكت الحجاج ولم يجب"(٣). لقد كانت إجابات يحيى بن يعمر مسكتة، بيد أن سلطة الحجاج وسطوته دفعته أن يكمل الكلام، مقلبا له على جميع وجوهه حتى يلقي الرعب والخوف في قلب محدثه يحيى بن يعمر، لا سيما أن أمر الحجاج معروف مشهور بين الناس من التجبر والسطوة. ولقد تدرج الحديث بينهما،

(١) يونس يزدان برست، سكوت النبي -صلى الله عليه وسلم- ودلالته على الحكم الشرعي، ٣٥٢، مجلة الحكمة السعودية، العدد ٤٤، ٢٠١١م.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ١/ ٣٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

(٣) السابق، ١/ ٢٣٠.

وكان من الممكن أن يسكت الحجاج بعد إجابة يحيى الأولى، لكنه استعمل سلطته على يحيى، فتوجه له بسؤاله: ما حملك على ما قلت؟ وكأنه يرهبه بهذا السؤال. فكانت الإجابة الثانية أشد وقعا على نفس الحجاج، وقد كان من الممكن أن تكون مسكتة. ويعود الحجاج، ويزيد من التهديد المبطن: ألم تخش سيف الحجاج؟ وتأتي الإجابة الثالثة أشد وقعا وإيلاما، وإسكاتا لعنجهية الحجاج، فلا يجد مفرًّا من السكوت والاستسلام، وقد حاول ترهيب يحيى ولم يستطع. فكان سكوته إفحاما وانقطاعا، حيث لم يجد شيئا يخيف به يحيى أكثر مما فعل، فاستسلم وسكت، وكان سكوته موقفا اختياريا، بعد أن طاحت حججه التي ألقاها، وحجاجه الذي لم يفلح مع الرجل الصالح الذي لم يرهبه التهديد والوعيد.

ومثل هذه الحادثة أيضا ما ذكره ابن عبدربه في العقد الفريد: "قال مروان لحويطب بن عبد العزّى، وكان كبيرا مسنا. أيها الشيخ، تأخر إسلامك حتى سبقك الأحداث. فقال: الله المستعان، والله لقد هممت بالإسلام غير مرة، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني، ويقول: يضع من قدرك أن تترك دين آبائك لدين محدث، وتصير تابعا فسكت مروان"(١). وكذلك ما رواه أيضا قال: "ودخل رجل من بني مخزوم على عبد الملك بن مروان، وكان زبيريا، فقال له عبد الملك: أليس الله قد ردّك على عقبيك؟ قال: ومن ردّ إليك يا أمير المؤمنين فقد ردّ على عقبيه؟، فسكت عبد الملك وعلم أنه أخطأ"(٢). إن المتكلم يلقي بسهم يحاول به إصابة المتلقي، ويظن أنه سيقع منه في مقتل، فإذا رد عليه المتلقي بحجة أقوى من حجته، ارتد السهم إلى المتكلم، فلا يجد مفرًّا من السكوت والإفحام، ومع ذلك يظل الصمت موقفا اختياريا؛ فالمتكلم الذي أفحم يختار الصمت؛ لأنه لو تكلم أوقع نفسه في حرج أكبر من الذي وضع نفسه فيه حين سكت.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/ ١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ه.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢/ ٤٨، مرجع سابق.

ويلاحظ في ثلاث القصص أن السكوت هنا كان سكوت انقطاع وإفحام، حيث كانت الأجوبة المسكتة هي السبب في هذا الانقطاع، وهو موقف يلجأ إليه المتلقي حين لا يجد كلامًا يقوله، فقد أفحمه المتكلم بكلام لم يجد له جوابًا، وليس في استطاعة المتلقي حينئذ إكمال الحديث، فاضطر إلى السكوت والصمت.

الحزن والجزع: وقد يكون السبب في الصمت شدة الجزع، على حبيب مفارق، والحزن على موت صديق، أو فقد أخ أو نحو ذلك. ومن أمثلة هذا الصمت ما ذكره المنفلوطي في كتابه: "لما بلغ عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرة، ويصفر أخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم، فوالله إنه الخطيب اللبيب!؟ فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب، فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إذا جزع. ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفل تأبين أخيه فتحي باشا زغلول، وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء، وارتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط، والخطيب الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها، وأذهبها بالعقول والألباب. فما أشبه هذا البطل الباكي، بذلك البطل الجازع"(١).

والمنفلوطي يقيم موازنة بين بطلين من أبطال أمتنا العربية: الأول: عبد الله بن الزبير حين ارتج عليه بسبب موت أخيه مصعب. والثاني هو سعد باشا زغلول، وقد تم التعليل للحالين؛ فعبد الله يذكر مقتل سيد العرب مصعب، فيشتد عليه، فينعقد لسانه ويصمت، وسعد باشا يريد أن يشكر القائمين على حفل التأبين فتخنقه العبرة، ولا يبين. إن الحال بينهما متشابهة،

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة (النظرات والعبرات)، ٥٩٩، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م.

فكل من البطلين قد ابتلي بموت أخيه، وكلا الرجلين ارتج عليه. وكان السبب في هذا الصمت هو الحزن الشديد الذي انعقد بسببه اللسان.

وتتبع دلالات الصمت يطول، لأن الإبداع متجدد، والصمت له دلالة كدلالة هذا الإبداع بل قد يكون الصمت بلاغة وإبداعا، ومن هنا يصبح مستحيلا أن يحاط بدلالات الصمت، والأسباب التي تدفع المتكلم/ الصامت إلى ترك الكلام، واللجوء إلى الخيار الثاني وهو السكوت والصمت. إننا نعلم أن الاستشهاد في النحو يقف عند عصر الاحتجاج، لكن الأمر ليس كذلك في البلاغة؛ إذ هي قائمة على الإبداع، والإبداع متجدد، وبالتالي ليس هناك حدود، أو قواعد نقف عندها لنرفض ما عداها؛ لأنها غير جارية على قوانين اللغة وضوابطها التي وضعها السابقون. ومن هنا نقول: إن الأسباب الدافعة إلى الصمت ليس محصورة أشرنا إلى بعضها، ومثلنا له. لندل بالمذكور على ما سواه، ونلفت النظر إلى بقية المعاني الدلالية للصمت، التي تستخرج من السياقات المختلفة بشيء من النظر والتدقيق.

المبحث الثاني: حجاجية الصمت

لسنا في حاجة إلى استقصاء كل ما قيل في تعريف الحجاج، وبيان أصل اشتقاقه لغة، ومذاهب العلماء في حدِّه، بعدما كثر الحديث عنه، وتنوعت الكتابة في تأصيله، وتطبيقاته. بيد أننا نشير إلى أن وسيلة الحجاج هي اللغة بكل مكوناتها، ووظيفته الإقناع، وأن الحديث عن الحجاج قديم، وأن أرسطو ذكر الخطابة وقصد بها الحجاج، وطالب بأن يراعى في الخطاب ثلاثة أشياء هي: الخطيب والموضوع والمستمع، فهو ينظر لعملية الخطابة من خلال هذه الزوايا الثلاث. وهي النظرة التي وجدناها في فكر معظم اللسانيين والسيميائيين المعاصرين عند دراستهم للخطاب. وقد نقل محمد الولي عن ميشيل مايير جدولا توضيحيا لهذه الثلاثية التي أشار إليها أرسطو، ولم يتغير مضمونها حين تغيرت أسماؤها.

ميشيل مايير: يسمي ثلاثتها: الذات –الموضوع –الآخر.

ياكبسون: يسميها الباث– الرسالة– المتلقي.

بوهلير: يجعلها التعبير– الموضوع– الإقناع.

أوستين: يربطها بالخطاب فيسميها المخاطِب– الخطاب– المخاطَب.

أرسطو: الخطيب– النص– المستمع(١).

وتركيز الخطاب على أي واحد من الثلاثة المذكورة يعطي هذا الخطاب لوناً يخالف الآخر، ويحقق وظيفة معينة؛ فمثلا التركيز على المرسِل يحقق الوظيفة البيانية الإبلاغية. والتركيز على المتلقي يبرز دور الوظيفة البلاغية أو التبيين أو الإفهام (قد تسمى هذه الوظيفة وظيفة خطابية أو تسميها إقناعية أو تسميها حجاجية ولا إشكال في ذلك)، ومعنى ذلك أنك حريص على إحداث أثر في المتلقي. ومن خلال هذه الرؤية الثلاثية للحجاج نتحدث عن دور كل واحد من الثلاثة في خطاب الصمت.

(١) محمد الولي، بلاغة الحجاج، مجلة علامات، المغرب، العدد ٥، ١٩٩٦م.

إن دور المتكلم (يكون صامتاً في بعض المواقف الحجاجية حين يرى الصمت أولى بالموقف والمقام) يصب اهتمامه على إقناع المتلقي، والتأثير فيه، من خلال تغيير قناعاته ومواقفه، باستخدام خطاب موجه إليه يستهدف العقل والقلب. ويكون الهدف الرئيس من صياغة الحجج التي يقوم بها المتكلم/ الصامت التحريض على الفعل، أو يعمل –على الأقل– على خلق حالة استعداد وتأهب للقيام بهذا الفعل. فحرص المتكلم على استمالة السامعين بصياغة حجج شفاهية أو كتابية هو الذي يدخل الحجاج في ميدان البلاغة.

وسعي المتكلم/ الصامت إلى التأثير في المتلقي لتعديل موقفه، أو حتى حالته النفسية والفكرية، يظل إحدى الغايات التي يعمل لها هذا المتكلم. ولأجل ذلك لا يحرص المتكلم على الإمتاع بقدر ما يحرص على الإقناع، ولو وجد بعض الإمتاع فإنه يكون مسخرًا للوظيفة الأساسية وهي الإقناع.

وتتعلق البلاغة بالخطابات الموجهة إلى مختلف المستمعين، سواء أكان المستمع شخصا واحدا، أو جماعة، أو كان خطابا عامًّا لكل البشر، أو كان خطابا لنفسه في موقف حوار ذاتي. ومع كل واحد من المستمعين السابقين يصلح الحجاج؛ لأنه عبارة عن صياغة للحجج بصرف النظر عمن يكون هو المتلقي لهذه الحجج؛ فغايته الإقناع، وبصرف النظر عن نوعية المستمع الذي يتوجه إليه الخطاب.

ولابد في موقف الحجاج من التفاعل بين المتكلم والمتلقي، فالمتكلم الذي لا يضع في باله مَطَالِب متلقيه شخص أنانيّ، سوف يجد نفسه متحدثا مع نفسه فقط، لأن المتلقي لن يتفاعل معه.

كذلك ينبغي أن يراعي المتكلم أمرين مهمين: أولهما: المسلمات التي ننطلق منها؛ حيث إن ذلك يساعد في الوصول إلى المختلف فيه، ففي كل خطاب يتم بين اثنين تكون هناك منطقة التقاء يسلم كل واحد منهما بها. فالتركيز عليها، والانطلاق منها يدفع إلى الوصول الهادئ لمنطقة الخلاف والحديث حولها. أما إذا كانت نقطة الانطلاق هي القضية المختلف فيها فإن الحوار ينتهي قبل أن يبدأ. ثانيهما: مراعاة المقام الذي يتم فيه الحجاج

والخطاب؛ فيجب أن يتم التلاؤم بين المتكلم والمتلقي في مقام الخطاب، فيستخدم الحجج التي يقبلها المتلقي؛ لأن تجاهل المتكلم للمقام يجعل حديثه في وادٍ غير الوادي الذي يجلس فيه المتلقي.

إن نجاح العملية الحجاجية يعتمد على مدى ذكاء المرسل وكفاءته، وحسن توظيف أدوات الإقناع لديه، وبخاصة الأدوات ذات المرجعية الاجتماعية المرتبطة بالقيم الثقافية أو الدينية. كذلك الأدوات ذات المرجعية المرتبطة بطبيعة الحجاج كاستعمال الدليل والحجة أو التضليل والحيلة.

وينعكس سلوك المتلقي على المتكلم في بناء حججه، ذلك أن المتكلم يكون شديد الحرص على مراعاة أحوال المتلقي وظروفه، كما يستحضر قدراته المعرفية وكفاءته؛ إذ نجد المتكلم ينتج خطابه انطلاقا من رد فعل المتلقي. حيث يستند المرسل إلى سلوك المتلقي؛ ليثبت حججه، ويقنعه بتصديقها وتقبلها.

والصمت فيه إمكانات فنية للمرسل والنص والمتلقي، "إذ يستطيع الكاتب أن يصمت عن الإفصاح عن مواقفه إزاء كثير من القضايا، لا سيما إذا كان سقف الحرية متدنيًا. فالصمت وسيلة يتوارى خلفها، هربًا من مضايقة السلطة، التي تحرص أن يظل المثقف صامتاً. غير أنها –في الوقت نفسه– تفتح أمامه أبواب الرمز والقناع والمفارقة والحذف والصورة وتراسل الحواس؛ حيث نرى الصمت، ونسمع اللون مثلا. وبالتالي يصبح للنص ظاهر وباطن، وخارج وداخل بما يؤهله لقراءات مختلفة"(١).

وليس الصمت غاية في ذاته، وإنما هو استراتيجية يلجأ إليها المتكلم/ الصامت لمحاولة تحقيق غاية حجاجية تكمن وراء صمتٍ كان الأصل أن يكون فيه الصامت متكلما، فأخلف ظن المتلقي، وصمت بدلا من أن يتكلم، وبهذا الصمت قد قصد إلى لفت نظر المتلقي؛ ليستخرج النكتة والغاية

(١) د. زهير محمود عبيدات، تجليات الصمت في رواية علي عشا، ٥٢، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلد ٢، العدد ٣، ٢٠٠٦م.

الحجاجية التي من أجلها آثر الصمت والسكوت على الكلام والبيان. إن الصمت "اختيار واعٍ مدبّر مقصود، آثره صاحبه، وعمد إليه؛ لما فيه من طاقات تعبيرية، وإبلاغية تفوق ما للقول من طاقات. وأكثر ظهوره في مقام الحجاج؛ بما هو مقام اختلافي، يسعى فيه كلّ من الطرفين المتحاورين "المحاجّ Argumentateur والمحاجّ له أو المحجوج Argumentataire إلى دعم أطروحته، ودحض أطروحة خصمه"(١)، ولابد من أن يكون هذا الصمت المستخدم في الحجاج سائرا وفق خطة معينة قائمة على جملة من الحجج، وهذه الحجج ترتَّب ترتيبا مخصوصا. كما أنه ينبغي أن تؤدّى بأساليب تعبيرية، وطرائق مخصوصة يحرص المحاجّ على حسن انتقائها من بين الحجج، ويحسن صياغتها؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأقرب من فكر المتلقي، وأقدر على تأدية المقاصد التي انتدبت لها، وقيلت فيها.

فالصمت ملمح حجاجي –صحيح أنه حجاج ضمني مبطن لكنه تقنية– يحتاج في اشتغاله إلى سياق تواصلي، يؤطر عمله وتفعيله. إنه استراتيجية ماكرة تتطلب من المرسل ذكاءً؛ ليحكم صوغه، فيؤدي غرضه الفني، ويحتاج من المتلقي فطنة تفك شفرته، وتفهم مقصود مرسله.

فيصبح الصمت مظهرا من مظاهر التوضيح والإبلاغ، ويصير بلاغة تفوق كل بيان، "إذ هو مشرق في عتمته، متعدد المعاني في أُحَادِيَّتِه، منفتح في انغلاقه، طيِّعٌ في عصيانه، يحقق النصر والاقتدار زمن الخيبة والعجز. وهو سكن الكاتب المبدع حين يعزّ السكن، وأنيسه حين يفتقد الجليس، وعبارته القصوى لتأدية المعنى، حين تبتذل المعاني، ويعز التعبير"(٢).

(١) د. عبد الله البهلول، استراتيجيات السكوت والإسكات في الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء المعري وداعي الدعاة الفاطمي، ١٢٨، وقائع ندوة قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، ٢٠٠٩م.

(٢) د. عبد الله البهلول، الصمت سياسة في القول، ٨٤، مرجع سابق.

والحجاج مجموعة من الأساليب المتخيرة، والوسائل اللغوية المتفاعلة، الخاضعة لترتيب معين، والغرض منها حمل المتلقي على فعل الشيء أو تركه، بعد أن يتجاوز مرحلة التصديق بالأطروحة والاقتناع بها. ويعترض على هذا الكلام بأن المرسل ليس محاجًا بالكلام، إنه شخص صامت، فكيف يستطيع أن يقنع المتلقي بالفعل أو عدم الفعل؟ وكيف يصبح الصمت عن الإفادة أزيد في الإفادة؟ على حد قول عبد القاهر. وهل يمكن أن يكون غياب اللفظ مؤثرا في المتلقي أكثر من وجوده؟

ولعل هذه التساؤلات تدخلنا إلى العنصر الثاني من عناصر الخطاب وهو الرسالة، حيث تكون الرسالة المشتركة بين المرسل والمتلقي صمتا وسكوتا وعدما، فكيف تصبح بليغة؟

يقول الجاحظ: "واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه، وعند إصابة فرصته. وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عياً ولا رهبة"(١). وتعريف ابن المقفع للبلاغة بأنها اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ..."(٢). والنظر في هذين الاقتباسين يظهر بوضوح مدى ما للصمت من قدرة دلالية، فهو بحق أنفع من الكلام. بشرط أن يكون في موضعه، بمعنى أن تكون الظروف المقامية مستدعية له، وذلك بإصابة فرصته. تُرَى هل يكون ترك الكلام اعترافا بعدم قدرة اللغة على نقل هذه الشحنة التواصلية، أم أن الفكرة التي سكت المرسل عن التعبير عنها فكرة مترامية الأطراف لا يستطيع اللفظ الإحاطة بها؟ أم أن المرسل رافض للتواصل على الرغم من توافر أركان الخطاب كالمتلقي والرسالة، ومع ذلك يمسك المرسل عن التلفظ؟ كل هذه احتمالات ممكنة عند الحديث عن الصمت في موضعه.

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ: الرسائل السياسية، ٧٩، مرجع سابق.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، ١/١١٥، مرجع سابق.

ويعد المتلقي عنصرا مهمًّا في سير العملية الحجاجية ونموها؛ فليس من السهل التأثير عليه إلا بالحجج الموافقة لآرائه ومعتقداته؛ ذلك أن الحجة غير ملزمة له، ويجوز قبولها عنده مثلما يجوز رفضها. والقبول والرفض يكون بحسب ما يتوافق مع اختيارات المتلقي، ويحقق مصالحه التي يراها مناسبة، ويتفق مع آرائه. وقد يكون الزمان أو المكان أو متغيرات الأحداث سببًا في أن يغير المتلقي رأيه؛ فيقبل حجة كان يرفضها، أو كان يتشكك فيها. وبذلك يعد الإقناع طابعًا بلاغيًا.

إن الحجاج يسعى إلى التأثير في المتلقي، وإلى تعديل حالته النفسية والفكرية، والمتلقي لا يظل هو نفسه بعد الانتهاء من القراءة أو الاستماع. فتغيير الأحوال النفسية والفكرية هو غاية الأقوال الحجاجية أو البلاغية. "وفي الصمت اكتناز المعنى، وولادة الدلالة، مما يسمح بعمل المؤول، ونشاط تجربة إنتاج المعنى"(١).

إن المرسل حين يمتعنا أسلوبه يتخذ من ذلك حجة إقناعية. وهذه المتعة ليست مقصودة في حد ذاتها. إنها وسيلة لا غير. فالمحاجة تحرص على كسب المستمع إلى جانب الأطروحة التي يدافع عنها المحاج؛ لأن الغاية هي تغيير حال المتلقي، وذلك بإخراجه من حالة المعارضة (أو قل: عدم الاكتراث) لأطروحاته إلى حال قبولها، والدفاع العملي عنها. فالغاية إذن هي تغيير السلوك. وحينما يتم تغيير السلوك فهذا يعني أن المحاج قد حقق هدفه، وأنجز مهمته.

بهذا يتضح أن هذا العنصر (المتلقي) لا يمكن أن يقارن بأي عنصر من العناصر الأخرى؛ إذ إنها كلَّها تصب في جانبه. والبلاغة تطمح إلى إنجاز وظائف ثلاثة وهي الإفادة والإمتاع والتأثير. تتمثل الإفادة في أمرين:

(١) علي البوجديدي، الاختزال في النادرة: صمت كلام أم صمت بيان؟ نوادر البخلاء للجاحظ أنموذجا، الورشة الخامسة، أبحاث في الفكاهة والسخرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، المغرب، ٢٠١٤م.

أولهما: يكون في تلقي كل المعلومات المتعلقة بموضوع قضية ما. وهذا الملف في الحقيقة يشبَّه بالمادة الخام للأحداث، كما يتصور أنها قد وقعت. ويوجه الخطاب في الواقع هنا إلى العقل. ويشترط في هذا السرد أن يكون موضوعيا، وصادقا. والأمر الثاني: يتعلق باللمسة الشخصية حيث يتمثل فيما نضيفه إلى هذه المادة الخام من الحجج، ووسائل الإقناع. ويتمثل الإمتاع في نفي كل عناصر الملل عن المتلقي؛ ذلك الملل الذي يمكن أن يتسبب فيه ثقل المادة المحكية، وجفاف الحجج المخاطبة للعقل(١). إن تعاطف الجمهور مع المرسل ومع موضوع الخطاب يحصل بواسطة رابط عاطفي متصل بموضوع الخطاب بين المرسل والجمهور. وكسب عطف الجمهور يكتسب أهمية بالغة في مقدمة الخطاب وفي نهايتها. ففي البداية يسعى المرسل إلى جذب انتباه المتلقي بإخراجه من حالة عدم الاكتراث، وفي الخاتمة يسعى المرسل إلى الدفع بالمتلقي في اتجاه تبني موقفه، وترجمته إلى فعل وممارسة.

والمتلقي له دور كبير في بلاغة الصمت إذ هو الذي يتمكن من فك شفرات الصمت، والوصول إلى المقصود من ورائه. كما أنه تُوكَلُ إليه مهمة إبراز المغزى البلاغي الذي كمن في الصمت، وجعل المرسل يؤثره على الكلام والبيان والعبارة. وإذا كان دور المرسل حجاجيا إقناعيا فإن دور المتلقي دور مهم في قضية التفاعل مع الرسالة، أو رفضها، أو تبنيها. كذلك يكون دور المتلقي مهمًّا؛ لأنه يميز بين السكوت الذي هو حُبْسة وحَصَر وعيٌّ، والسكوت الذي هو بليغ يقصد المرسل من ورائه إلى تحقيق أهداف فنية وبلاغية، الصمت المقصود المشحون بطاقةٍ دلالية. ولابد أن يكون المرسل واعيًا فيترك إشارات تلمح إلى المتلقي بالمعنى الكامن المستتر وراء الصمت. إن معرفة المتلقي بالمرسِل أمر ضروري يدخل ضمن الكفاية

(١) محمد الولي، بلاغة الحجاج، مرجع سابق بتصرف قليل.

الموسوعية التي هي إحدى الكفايات المشترطة في المتلقي؛ لأنها تجعل المتلقي يؤمن بأن رسالة المرسِل هي صدًى لقناعاته وفكره. وهو افتراض بأن الصوت الذي يصل إلينا هو صوت المرسل، وله خارج الرسالة وجود تاريخي، وعدم الأخذ في الاعتبار هذا الأمر يغلق النص في وجه المتلقي، ويبهمه ويوصده.

ولنأخذ مثلا على حجاجية الصمت بهذه القصة التي كان السكوت فيها أدبًا حيث روى ابن قتيبة في عيون الأخبار قال: "حدّثني أبو حاتم عن الأصمعيّ عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المزنيّ قال: جاء رجل فشتم الأحنف فسكت عنه، وأعاد فسكت، فقال: والهفاه! ما يمنعه من أن يردّ عليّ إلّا هواني عليه"(١).

ولنتخيل المسرح الكلامي الذي دارت فيه هذه القصة؛ حيث إن فيها متكلما ومتلقيا ورسالة بين الطرفين؛ ويريد المتكلم أن يجري حوارا مع المتلقي يخرجه فيه عن طوره وأدبه، ويجعله يسايره في الكلام، ولأن هذا الحوار يتنافى مع ما عرف عن المتلقي من حسن أدب وما اشتهر به من الحلم فقد كان الحوار والكلام من طرف واحد فشتم الرجل الأحنف، وعاد الدور على الأحنف ليشارك الرجل في إذكاء الحوار، ويرد عن نفسه أذى الشتم، فهذا حق له، فالمتكلم قد قام بأداء الرسالة، فاكتمل الموقف الكلامي، وبقي دور المتلقي ليقوم بدوره. لكن المتلقي اختار موقفا آخر غير الكلام؛ إنه موقف الصمت. وهذا موقف اختياري لا يلزم المتلقي الذي صار –في تبادل الأدوار في الحوار– متكلما / صامتا. فكان صمته أشد من كلامه؛ ذلك أن الكلام سيجر إلى أذى أكثر، وسيعطي الشاتم/ المتكلم قيمة لا يستحقها، وسيضع من قدر الأحنف/ المتكلم المفترض. فكان اختياره لموقف الصمت

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ١/ ٣٩٧، مرجع سابق.

موقفا حجاجيا رفع قدر الصامت، وأذهل الخصم، وجعله يدرك هوانه على الأحنف، وأن قدره عنده الأحنف لا يساوي شيئا حتى يرد عليه.

ومن هنا كان صمت الأحنف موقفا حجاجيا بامتياز؛ حقق فوائد كثيرة لم يكن الكلام ليحققها؛ منها: حفظ كرامته أمام سفيه، وتحقيق ما يتوقع منه فقد عرف عنه الحلم ولا يليق به أن يجهل مثلما يجهل الناس، تعريف الرجل بصغر شأنه وهوانه على الأحنف، حفظ اللسان عن قول الباطل، جعل من حضر الموقف يستهجن من الرجل فعله؛ فلو رد عليه الأحنف لكان الموقف ملاعنة وسبابا، إلى غير ذلك من فوائد أخرى جعلت الأحنف يختار الصمت على الكلام، وأن يكون الصمت حجاجا يفوق حجة الكلام؛ وهو ما حدا بالرجل أن يعترف بذلك، فيقول: والهفاه! –وهي كلمة تحسر– وأن الأحنف ما يمنعه من أن يردّ عليه –كما كان متوقعا– إلّا لهوانه عليه.

إن الاختيار بين موقفي الصمت والكلام اختيار حساس يدفع المرء إلى أن يختار ما يراه بالموقف أليق، وما يحقق له عند المتلقي أغراضا حجاجية، فاختيار الكلام له تبعات، واختيار الصمت من القادر على الرد موقف مخالف يجعل المتلقي له يؤول هذا الصمت تأويلات مختلفة عن تأويل الكلام؛ فقد كان يمكن للرجل أن يؤول الصمت من الأحنف على أنه خوف منه، أو أنه عجز عن الرد لكن معرفة الرجل بمكانة الأحنف القَبَلِية واللغوية جعلته يؤول صمته تأويلا محددا هو هوانه. فهناك من السياق الخارجي ما يؤيد مكانة الأحنف في قبيلته تميم، وهناك أيضا ما يؤيد فصاحته وبلاغته وقدرته على الرد في الحال بما يلجم، ومن هنا اختيار الصمت موقفا اختياريا لا إجبار فيه.

ومثال آخر على حجاجية الصمت، وأنه اختيار واع يرمي صاحبه من ورائه لتحقيق غايات حجاجية ما ورد في الحديث السابق في دلالات الصمت حين أخبر النبي الكريم أصحابه بأن الله قد فرض عليهم الحج، ولنتخيل المسرح الكلامي لنرى النبي –صلى الله عليه وسلم– متكلما، ونرى الصحابة متلقين، وهو يوصل إليهم رسالة مفادها أن الحج صار مفروضا على الأمة.

فتكون عناصر الخطاب قد اكتملت، ثم يحدث حوار فيتم تبادل الأدوار حيث يصير المتكلم متلقيا، والمتلقي متكلما. ويسأل الرجل سؤالا: أفي كل عام يكون الحج؟ وطبقا لقواعد التواصل يجيب النبي الكريم، لكن الرسول يتخذ موقفا مخالفا فلا يتكلم، ويؤثر الصمت والسكوت، فيسأل الرجل مرة أخرى، ويتكرر فعل النبي الكريم ويسكت، ويسأل الرجل مرة ثالثة. فما الذي حمل النبي الكريم على السكوت –وهو مشرع ومبلغ عن ربه–؟ وهنا يكون السكوت موقفا اختياريا من الرسول الكريم يقصد من ورائه غايات حجاجية منها: أن يسكت الصحابي فلا يكرر سؤاله، ومنها أن يفهم الصحابي الرد من السكوت، ومنها أن يرفع الحرج والإثم عن المسلمين، ومنها أن يعلم الصحابي عدم تكرار السؤال، ومنها إعطاء الفرصة للنظر في عواقب الإجابة بنعم، ومنها تشويق الجميع إلى الجواب. وغير ذلك من الغايات التي كمنت وراء السكوت الكريم. بيد أن الرجل لم يطق صبرا، وكرر سؤاله، فكان الجواب بعد سكوت مرتين ليحقق الغايات السابقة. وليكون فيه النهي عن كثرة السؤال، وعن أن الحج ليس في كل عام. إن موقف السكوت كان موقفا كريما من الرسول الكريم، وموقف السكوت هو موقف حجاجي بامتياز؛ لأنه حقق غايات لم تكن لتتحقق من خلال الكلام المباشر الذي يرد فيه المسؤول على السائل في كل سؤال يسأله، ولا يدرك عواقب هذا التسرع في السؤال، فلو أن الحج كان في عام واجبا لما استطاعت الأمة، ولكان هناك حرج كبير على المسلمين في بقاع الأرض البعيدة.

إن الصمت اختيار واع له غايات تحققت، وكان تفسير من حضر في هذا المسرح الكلامي على أن سكوت النبي الكريم لحكمة فهم يثقون في قدرة النبي البلاغية والإبلاغية، وأنه لن يسكت في معرض البيان إلا لحكمة يقصدها، وقد كان صمته في معرض الحاجة بيان؛ بيان لما يجب أن يتحلى به السائل من استجلاء حاجة الأمة إلى السؤال، ومدى ما يحققه السؤال من المصلحة أو الإثم والحرج.

المبحث الثالث: الصمت ولغة الجسد

لغة الجسد هي عبارة حركات وإيحاءات يقوم بها المتكلم يستخدم فيها وجهه أو أطرافه أو صوته، للتعبير عن داخلة نفسه وما يقصد إيصاله إلى المتلقي من مشاعر وأحاسيس وأفكار أيضا بطريقةٍ أفضل وأوضح.

والجسد مصدر للدلالات، إذ إنه يدل في وقت حركته، ويدل في وقت سكونه، ولكل حالة منهما دلالة؛ فإذا كان السكون هو الوضع الأصلي للجسد فهو أيضا أصل للدلالة المتولدة عن الإيماءات، سكون ينتج عنه حركة، كما يكون الصمت يتولد عنه الكلام. فهو سكون دالّ مثلما يكون الصمت دالاً، "إن كل حركة هي في واقع الأمر إنجاز لمشروع ثقافي"(١). حيث يكون الجسد شبيهًا بالوحدة المعجمية ليس له معنى، لكنه يكتسب المعنى من الاستعمال، وبالتالي نجد في الإشارات ما نجد في اللغة من وجود المشترك الحركي والترادف الحركي كذلك، بل نستطيع أن نقول بوجود التضاد الحركي. فنجد أن الإيماءة الواحدة تحمل معانيَ كثيرة، فكما أننا نؤمن بالمشترك اللفظي في اللغة الصائتة، لابد أن نؤمن بالمشترك الحركي في اللغة الصامتة؛ فنظرة العين لها معان كثيرة، وحركة اليد لها أيضا كذلك. وكما أن في اللغة المنطوقة ما يسمى بالترادف اللفظي فإن في اللغة المرئية أيضا ما يسمى بالترادف الحركي؛ فالموافقة لها أكثر من حركة تعبر عنها، كهز الرأس وحركة اليد وغيرها، ومثلها الرفض، وكثير من المعاني لها أكثر من حركة تدل عليها. وكل ذلك مشروط فيه سياق ثقافي واجتماعي متحد بين مرسل الحركة ومتلقيها، فلو لم يكن السياق واحدا لفهمت الحركة خطأ، والشواهد على ذلك كثيرة، إنَّ فهم الحركات مثل فهم دلالات الألفاظ، وهناك كلمات تقال في سياق ثقافي معين لو أخرجت من تداوليتها فيه اختلف معناها بل قد يتناقض اللفظ وما يفهم منه، ولو أننا أرسلنا حركة من حركات

(١) سعيد بن كراد، الجسد اللغة وسلطة الأشكال، العدد ٤، ص٥٨، مجلة علامات، المغرب، 1995م.

الجسد لشخص جهل الحركة لما كان لها دلالة مفيدة، أو أن دلالتها قد تُحوِّل إلى عكس مقصودها، وهكذا لا بد من مراعاة السياق الثقافي الذي ترسل فيه الحركة.

إن لغة الجسد في حركاتها تشبه الكلمات؛ فكل حركة تشبه كلمة من كلمات اللغة، وإذا كانت كلمات اللغة لا تفهم مفردة، بل يجب أن توضع في سياق جمل تعبر عن فكرة، فكذلك الحركات غير اللفظية لابد أن توضع في سياق تواصلي حتى تفهم، وحتى تحقق التأثير والإقناع. كما يجب أن يكون صاحب هذه الحركات الجسدية صادقا في التعبير بها عما في نفسه، فقد ذكر الفارابي أن سحنة وجه الإنسان حين يتكلم أو شكله، أو شكل أعضائه ومنظرها حين يتفق مع قوله يقع التصديق له، وضرب مثلا لذلك بمن يحذر من أمر مَخُوفٍ قد اقترب فيكون الخوف باديًا على وجهه فيظهر فيه الخوف، أو يبدو وجهه وجه هارب من شيء فهذا يبعث على تصديقه فيما يقول(١).

ويبدو أثر لغة الجسد في تحقيق التأثير في المتلقي من خلال أداء الملقي للغة الجسد في التطويح والتطريح، قال قيس بن ذريح:

إذا ذكرت لُبنى تأوّه واشتكى تأوُّه محموم عليه البلابل

يبيت ويضحي تحت ظل منيَّةٍ به رمقٌ تبكي عليه القبائل

قتيلٌ لِلُبنى صدّع الحب قلبه وفي الحب شغلٌ للمحبين شاغل

ذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن امرأة قالت: سمعت عبد الله بن مسلم بن جندب ينشد زوجي هذه الأبيات، فصاح زوجي: أواه!، واحرباه، واسلباه!. ثم قال لابن جندب: ويلك! أتنشد هذا هكذا؟! قال: فكيف أنشده؟ قال: لمَ لا تتأوه كما يتأوه، وتشتكي كما يشتكي؟!"(٢). لقد كان قصد الرجل

(١) بتصرف من: كتاب في المنطق، أبو نصر الفارابي، ص ٣٨، ت: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٣/ ٣٠٦، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

إلى أن يقوم ابن جندب في أدائه بحركات تناسب هذا التأوه وهذه الشكوى التي يجدها قيس في حبه، أما وقد أهملها ابن جندب في إلقائه، فقد لامه الرجل، وصرخ: أواه! واحرباه! واسلباه وكل ذلك كان استعظاما لإهمال عنصر مهم من عناصر الأداء، وهو لغة الجسد.

وكما نفرق بين صوت رقيق وصوت خشن غليظ، فإننا نفرق أيضا بين إيماءة رقيقة، وإيماءة خشنة تحمل وراءها من الكره والبغض، أو من الشدة والغلظة، أو من النهي والزجر ما وراءها. فهناك نظرة لا يستطيع الرائي نسيان أثرها فيه رقة وحنوا، أو كبرا وعلوا، أو قربا ودنوا، أو همسا واتصالا روحيا، وهكذا نستطيع أن نميز بين الإيماءات وما تحمل من معان للناظرين، كما نميز بين الأصوات وتنغيمها الذي يظهر ما وراءها من مقاصد للمتكلمين. ففي الجسد سلسلة من الأوضاع غير متناهية، وكمية من الإيماءات لا تحد "إن الجسد مرتبط بما سيصدر عنه؛ إن حالة السكون هي بؤرة التوقعية: منها سينبثق الفعل، ومنها ستنبثق الأشكال"(١). وكثير من الحركات التي يقوم بها الجسد فطرية "وسماها بول إكمان: التعبيرات الدقيقة"(٢).

وللثقافة دور في تعديل هذه الحركات الفطرية، وبالتالي يمكن أن نسيطر على تعبيرنا الحركي الدقيق، ونجعل هذا الجسد مثاليا، لا تظهر عليه الحركات في بعض الأحيان.

وقد دار الحوار حول وجود ثلاثة مستويات من الاتصال غير اللفظي هي:

- حركات الجسد وإيماءاته ووضعياته.
- ملحقات الجسد مثل الملابس والماكياج والمجوهرات والأوشام.

(١) سعيد بن كراد، الجسد اللغة وسلطة الأشكال، العدد ٤، ص٥٨، مجلة علامات، المغرب، 1995م.

(٢) ألينا ماريا هريشكا، اللغة الصامتة: الجسد الاصطناعي، ص٣٠، مجلة إضافات (مجلة عربية في علم الاجتماع)، لبنان، ترجمة: مازن مرسول محمد، العدد ٢٨، خريف ٢٠١٤م.

•التقارب الجسدي أو الفضاء والبعد عن الآخرين.

ويتفق كثير من الباحثين على أن هناك أهدافا مختلفة اشتركت فيها اللغتان: اللفظية وغير اللفظية. فالأولى تستخدم أكثر في نقل المعلومات والأفكار. والثانية تستخدم في نقل المشاعر الشخصية والعواطف، ويمكن أن تكون اللغة غير اللفظية مرافقة للغة اللفظية، أو تكون بديلا لها، أو مناقضة لها. كما يرى المنظرون أنه يمكن تجديد هذه التعبيرات الحركية ثقافيا؛ فتحمل الحركة دلالات تختلف من بيئة إلى بيئة أخرى حسب سعة ثقافة المرسل والمستقبل لهذه الحركات.

وقد حدد بول إكمان للاتصال غير اللفظي خمس وظائف يقوم بها هي:

١- التكرار (حيث إن الإشارة تكرر ما قالته اللغة الصائتة أو الاتصال اللفظي).

٢- الاستبدال (فالاتصال غير اللفظي قد صار بديلا للاتصال اللفظي والكلام).

٣- التكميل (حين يكون الاتصال غير اللفظي مكمِّلا للغة المنطوقة).

٤- التركيز (فيكون الاتصال غير اللفظي قائما بوظيفة التركيز على ما تم نطقه أو على جزء منه عبرت عنه الإشارة).

٥- المناقضة "حيث تكون الكلمات في واد والإشارة في واد آخر فيحدث تناقض بين الأمرين، وفي هذه الحالة يكون القصد إلى اللغة الإشارية وليس المنطوقة"(١)، وقد ذكر الأصوليون أنه: "إذا اجتمعت الإشارة والعبارة، واختلف موجبهما غلبت الإشارة"(٢).

وبعد إكمان بعشر سنوات وتحديدا في سنة ١٩٧٥م ذكر آرجايل Argyle أربع وظائف للاتصال غير اللفظي هي: "التعبير عن المشاعر،

(١) ألينا ماريا هريشكا، اللغة الصامتة: الجسد الاصطناعي، ص٣٤، مرجع سابق.

(٢) السيوطي، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، ص٣٩٣، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢١ه.

وإرسال المواقف الشخصية، وتقديم الشخصية، ومرافقة الخطاب لجلب الانتباه"[١].

قد تعجز الكلمات عن نقل المشاعر –أحيانا– لتبلغها للمتلقي، فتقوم لغة الجسد بهذا الدور في التبليغ والإيصال، وقد تكون أحسن منها وأبلغ. فالنظر إلى الشخص قد يعني التقدير أو الحب أو الرغبة أو السؤال. وعدم النظر إليه قد يعني الإهمال أو الكره أو النفور منه أو الملل من حديثه. وكل ذلك مرهون بسياقه الثقافي والاجتماعي الذي يحدد نوع النظرة ومغزاها "فالنظرة رسالة رمزية إيحائية، حمالة معنى، وفهمها يقتضي تأويلها مثلما نؤول نصًّا شعريا"[٢].

ولغة الجسد تنقسم إلى: علامات عضوية صادرة عن أعضاء الجسد كحركة العين والفم والوجه وغيرها. وعلامات غير عضوية كالملابس والموسيقى والألوان وغيرها[٣]. كذلك يمكن تقسيم لغة الجسد باعتبار آخر هو الفطرة والاكتساب؛ فهناك حركات فطرية يعرفها كل البشر لأنها تولد مع الإنسان يوم يأتي إلى الحياة، وهي غير إرادية كالضحك والبكاء وحمرة الوجه عند الخجل وتهلل الوجه عند الفرح وغيرها. وهناك حركات مكتسبة وهذا الاكتساب يكون من طريقين: من الوراثة كحركة الرأس تعبيرا عن الموافقة أو الرفض، وهناك طريق أخرى هي التعلم من أفراد المجتمع الذي يحيا فيه الإنسان. و"قد تكذب اللغة اللفظية، قد تسعى لأن تخفي؛ وهي تخون، وتزيف، وتنافق، وتواري، وتداور"[٤] لكن لغة الجسد لا تفعل ذلك،

(١) ألينا ماريا هريشكا، اللغة الصامتة: الجسد الاصطناعي، ص٣٤، مرجع سابق.

(٢) مجدي عبد المعروف حسين أحمد، لغة الجسد بين دلالات الحركة وشاعرية التوظيف، ١٤٩، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الزعيم الأزهري، السودان، العدد الثاني، ٢٠١٥م.

(٣) أشار إلى ذلك خالد عبد الرؤوف الجبر في بحثه: لغة الجسد في التراث العربي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، ص ١٧ من العدد ٣٦، حزيران ٢٠١٥م.

(٤) علي زيعور، تأويل لغة الجسد داخل اللاوعي الثقافي العربي، العدد :ع54,55 ، ص٣٤. مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1988م.

إنها مشاعر تنتقل في الموقف الذي يوجد فيه الإنسان، وتنتقل مشاعره للمتلقي كما هي دون تحريف أو كذب.

ولغة الجسد تتوازن مع حال الصمت، فالصمت قد يكون مثل النطق تماما، وهو أحيانا الأبلغ، فهو موقف من المرسل يتخذه مختارا، مركزا فيه قوته وبلاغته، فهو خطاب في حد ذاته، وقد يكون ضرورة يلجأ إليها المرسل كاختيار واعٍ، فإذا انضمت إليه لغة الجسد حدث نوع من التوازن بين الأمرين: الصمت ولغة الجسد، لتكون هذه اللغة خير مترجم عنه، وأفضل رسالة يلقيها الصامت بناء على وعي بمواطن الكلام ومواطن الصمت، ومواطن الإشارة بلغة الجسد.

وقد أشار الجاحظ إلى الوسائل التواصلية غير اللفظية، ودورها في الاتصال بين الناس، وقسمها إلى أقسام ثلاثة: قسم يكون مصاحبا للكلام والهدف منه إيضاحه(١). وقسم مقصود لذاته مستقل بنفسه(٢). وقسم هو من باب الإشارة الخفية واللغة السرية التي تظل بين شخصين يحافظان على عدم إفشائها(٣).

---

(١) ويمكن أن نمثل له بقول عمر بن أبي ربيعة:

وقالت –وعضت بالبنان– فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

(ديوان عمر بن أبي ربيعة، ١٢١، تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩١م).

(٢) ويمكن أن نمثل له بقول الشاعر:

رب إنسان ملا أسفاطه كتُبُ العلم وهو بعد يَخُط
فإذا فتشته عن علمه قال علمي يا خليلي في السفط
في كراريس جيادٍ أُحرزتْ وبخطٍّ أي خط أي خط
فإذا قلت له هات إذًا حكَّ لحييه جميعًا وامتخط

(٣) ويمكن أن نمثل له بقول الشاعر:

إشارات العيون مترجمات لما تطوي القلوب عن القلوب
إذا هي ترجمت باللحظ سرًّا تهادت بينها علم الغيوب
وفي إغضائها معنى لطيف تريد به مكايدة الرقيب
فيرجع ما له بالغيب علم وقد أغضت على علم عجيب

ولغة الجسد تكمل ما حذف من لغة الخطاب، وهذا يوضح لنا مدى التكامل بين اللغة المنطوقة وغير المنطوقة، فحين تنادي على شخص فتنطق اسمه مثلا فتقول: يا زيد، فينظر إليك فتشير إليه أنْ تعال، أو اذهب، أو تفتح له يديك لتعانقه أو غير ذلك من الإشارات نجد أن لغة الجسد تممت وكملت ما حذف من لغة الكلام.

وكما أن الأفعال تتم بالكلام فكذلك تتم إشارة بالجسد أيضا، فتصح المبايعة والهدية والإيجار وغيرها من الأفعال تصح بلغة الجسد، وانظر حالك لو ذهبت إلى بلد لا تعرف لغة أهله فالإشارة تقوم مقام التفاهم باللغة في كثير من الأمور. إن التواصل بين الناس له صور فهو لا يقتصر على الكلام، وإنما يكون عن طريق اللغة والحركات الجسدية والرموز والإشارة.

وكثيرا ما يصاحب الصمتَ حركة جسدية، تكون ناطقة في الوقت الذي يصمت فيه اللسان، فتقوم هي بتوصيل المعنى بدلا من الكلام، وهذه الحركات الجسدية كثيرة لا يحيط بها الحصر، يوضحها سياق الحال، وما بين المرسل والمتلقي من ثقافة مشتركة، يقول الجاحظ: "ففي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص"(١). فحين يكون الموقف هو موقف الصمت ينطق الجسد بإشارات وحركات تترجم عما يريده الإنسان ولم يعبر عنه بالكلام، وإنما نطقت لغة جسده، ولا شك أن الجاحظ في الاقتباس السابق أشار إلى أن هناك حوارا مستورا بين بعض الناس، يستره البعض من البعض، وجعل لذلك مصطلحا هو: خاص الخاص. فالمقام مقام صمت، حتى يستر المتكلم/ الصامت أمره، ويخفيه عن بعض الحاضرين في المسرح الكلامي، ومن هنا لجأ إلى الصمت اختيارا، وجعل

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٧٨، مرجع سابق.

من الإشارة ولغة الجسد لغة أخرى غير منطوقة. ولذلك نجد الجاحظ يقول عن الإشارة: "وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[1]. ويقول الشاعر:

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه
وللشكل على الشكل مقاييس وأشباه وفي العين غنى للعين أن تنطق أفواه

ويقول الآخر:

العَيْنُ تُبْدي الذي في قَلْبِ صاحبِها مِن الشَّناءَةِ أوْ حُبٍّ إذا كانا
إنَّ البَغيضَ لهُ عينٌ تُكَشِّفُهُ لا تَسْتطيعُ لما في القلْبِ كِتْمانا
فالعينُ تَنْطِقُ والأفْواهُ صامِتَةٌ حتى تَرى منْ ضَميرِ القلبِ تِبْيانا

فللعين نطق مثلما نجد للسان نطقا، ونطق العين فيه الغنى عن أن ينطق اللسان، كما أن العين قد تنطق في الوقت الذي لا يستطيع اللسان فيه أن ينطق؛ لغرض من الأغراض والأسباب التي تحدثنا عنها في المبحث الأول؛ كالخجل والحياء أو الأدب أو خوف الافتضاح مثلما يفعل المحبون، أو غير ذلك.

كذلك نجد الشعراء يتحدثون عن أن العيون لها لغة تتحدث بها، وهي مثل لغة اللسان تماما، فإذا كانت لغة اللسان مفهومة فلغة العيون مثلها، تفهمها العيون أيضا: قال أحمد شوقي:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عينيَّ في لغة الهوى عيناك

ويقول الشاعر الآخر:

وإذا العُيونُ تَحدّثتْ بلُغاتِها قالتْ مَقالاً لم يَقُلْهُ خَطيبُ

إن تعطل لغة الكلام عند شوقي إنما كان لكي تنطق العيون، وهذا النطق هو خطاب الغرام والعشق، الذي معه لا ينطق اللسان إلا قليلا، وتقوم العيون بباقي الحديث. فإذا تحادثت العيون بثت ما بها من شجن، وحب

(١) السابق.

وشوق لا يقدر أفصح الخطباء أن يقول ما قالت، وأن يبوح بما باحت بـــه، من تصوير لواعج الشوق وتباريح الهوى.

كما نجد الجاحظ يقرر تلازم الإشارة والعبارة، واقترانهما معا، فأبلغ الناس لا يستغني عن الإشارة بالمنطق وحده، ولكن لابد منها مع الكلام. وقد ذكر لذلك مثالين: أحدهما لمن يستعمل الإشارة مع فصاحته، ومنطقه البليغ، والآخر لا يستعملها، ظنا منه أن استعمالها يقدح في البلاغـــة والفصـــاحة. ولكنه يُنَاظَر في ذلك، ويعود أدراجه مرة أخرى فيقرّ أنها ملازمة للعبـــارة، ولها أهمية كأهمية الكلام. فيعود لاستعمالها. قال ثمامة بن الأشرس: "كـــان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحـــلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عـــن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة"(١). كما يقول عنه أيضا: "وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه"(٢). فهذا هو المثال الأول. وأما المثال الثاني فقد نقل الجاحظ في البيان والتبيين، أن رجلا يقال له: أبو شمر كان يظن أن تحريك اليد أو المنكب أو الرأس أو تقليـــب العينين عجز وقلة بلاغة، وضعف فصاحة. ولهذا كان في كلامه ومناظرته لا يحرك يديه، ولا منكبيه، ويكتفي بمنطقه عن تحريك رأسه، وتقليب عينيه، يقول الجاحظ: "حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة" (٣). ولم يكتف بذلك بل كان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى البلاغة والفصـــاحة، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكأن الإشارة تنقص من بلاغته بقدر اســـتعماله لها. وكان يقول: ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره. حتى حدثت بينـــه وبين إبراهيم بن سيار النظَّام مناظرة عند أيوب بن جعفر في أمـــر حركـــة أعضائه في كلامه فاضطره بالحجة، والنقاش في هذه المسألة، حتى أقنعـــه

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٠٦، مرجع سابق.
(٢) السابق، ١/ ١١١، مرجع سابق.
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٩١، مرجع سابق.

فحرك يديه، وحل حبوته، وحبا إليه. وفي رجوع أبي شمر عن رأيه ما يفيد أنه كان يحاول تعطيل الإشارة حتى لا يتهم بأنه عاجز عن اللفظ، ويستعين على البيان بالإشارة. حتى اقتنع بأن استعمال الإشارة ليس عيًّا، وليس عجزا، ولا حَصَرًا، ولكنها ترجمان للفظ، وعون له، ووسيلة تجذب السامع إلى المتكلم. وسوف نتناول بالحديث الإشارة التي هي لغة الجسد من ناحيتين: الأولى حين تكون مصاحبة للفظ. والأخرى حين تنفرد الإشارة وحدها بالبيان والتبليغ.

اقتران الإشارة بالعبارة: قد يتبادر هنا سؤال مؤداه: نحن نتحدث عن بلاغة الصمت أي حين يكون الصمت كالنطق في الإبلاغ. فما فائدة الكلام عن اقتران الإشارة بالعبارة؟ إن مجرد ذكر العبارة يخرج هذه الدراسة عن مقصودها. ونحن نقصد باقتران العبارة بالإشارة هنا: أن تكون الإشارة هنا قد أدت دورا لم تفصح عنه العبارة؛ فقد أدت العبارة دورها، ووقفت دون أن تعبر عن الأمر الذي قامت الإشارة بالبيان عنه.

ومن أمثلة اقتران الإشارة بالعبارة، وتأدية الإشارة معنى لم تذكره العبارة قوله تعالى: (فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم){الذاريات ٢٩} اتخذ تعجب زوج إبراهيم ثلاثة أشكال تعبيرية: أولها: صوت خرج من فمها بدون سيطرة عليه بسبب دهشتها وهو الصرة التي أطلقتها من الدهشة والتعجب. وثانيها: صك الوجه وهو تعبير حركي انفعالي. ذلك أن اللغة لم تطاوعها للتعبير عن الانفعال الشديد الذي تعرضت له. وثالثها: القول الذي نطقت به. "والتعبير الكلامي هنا ليس انفعاليا في دلالته أو في تنغيمه بل هو كلام إخباري في ظاهره لا يحمل في حناياه شحنات نفسية تتناغم مع الدهشة والاستغراب"(١).

(١) عمر عبد الهادي عتيق، لغة الجسد في القرآن الكريم، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، الأردن، المجلد التاسع، العدد ١، ٢٠١٣م.

إن الكلام هنا مؤيد بالحركات الجسدية التي منها التصويت غير اللفظي، وصك الوجه، وكلاهما مؤدٍ لدور مهم في الموقف الاتصالي، ومعبر عن تصرف طبيعي من امرأة بشِّرت بالولد بعد تقدم السن بها مع عقمها.

ومن أمثلة اقتران الإشارة بالعبارة أيضا ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أنهم كانوا جلوسا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين أنزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: "وآخرين منهم لما يلحقوا بهم..." سأل رجل: من هم يا رسول الله؟ فلم يرد عليه، حتى سأل ثلاث مرات، وكان سلمان الفارسي جالسا، فوضع رسول الله يده على سلمان، ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء"(١). والحديث مشتمل على أمرين: عبارة وإشارة؛ والإشارة هنا هي مزيد اختصاص، وتمييز لهذا الصحابي الكريم، "وبخاصة أن السائل صار في شوق إلى معرفة هذه الطائفة التي تلحق بالسابقين الأولين"(٢). إن الإشارة هنا أضافت معنى لم ينص عليه الرسول الكريم في كلامه، وهو تمييز هذا الرجل، وكأن كلاما مطويًّا وراء وضع يده على سلمان، يمكن تقديره: هذا الرجل من الذين لم يلحق بهم أحد، ثم يكمل الرسول كلامه الشريف: "لو كان الإيمان ...". ومن الملاحظ هنا أن حركة الجسد أغنت عن عبارة، ونطقت بكلام لم تكن العبارة أدل عليه من الإشارة. وكذلك الحديث الآخر: "أمرت أن أسجد علي سبعة أعظم. الجبهة وأشار بيده علي أنفه واليدين، والرجلين، وأطراف القدمين، ولا تكفت الثياب ولا الشعر"(٣). والإشارة هنا أغنت عن العبارة؛ فالرسول الكريم – صلوات الله عليه وآله وأصحابه– لم يذكر أحد هذه الأعظم السبعة، وهو

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب أهل فارس، رقم الحديث ٢٥٤٦.

(٢) د. سعيد أحمد جمعة، بلاغة الإشارة بين النظرية والتطبيق، بحث منشور على الشبكة الدولية Internet" من موقع أهل الحديث : http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=39437

(٣) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب السجود على الأنف ١/ ٢٨٠ (٧٧٩)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة ١/ ٣٥٤ (٤٩٠).

الجبهة، ويدخل فيها الأنف، ثم ذكر بقية الأعظم، ولو لم يصف الراوي إشارته لعددنا الأعظم فصارت ستًّا، واللفظ ذكر سبعا، فكان التعبير بلغة الجسد الشريف مغنيًا عن ذكر العظم السابع. ومن هنا تظهر أهمية الإشارة بلغة الجسد حين تكون مصاحبتها للعبارة ليس بقصد تأكيد المعنى وتثبيته، ولكن لقصد الدلالة على معنى لم تذكره العبارة بل اكتفت بالإشارة الجسدية عن العبارة التي هي الأصل، والتعبير بها عماد الموقف الكلامي لكن المتكلم رأى أن العبارة ليست هي الخيار الأمثل لتوصيل المعنى، فقسم حديثه قسمين: قسم استعمل فيه العبارة، وقسم اختار فيه التعبير بلغة الجسد؛ لأنها أدل، وأكثر بيانا من العبارة.

ومن أمثلة اقتران الإشارة بالعبارة في الشعر قول أبي محلِّم السعدي:

تقول –ودقت صدرها بيمينها– أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟!

وذكر ابن جني تعليقا على هذا البيت قال: "فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه –كذا ذكر في الخصائص وليس هنا صكّ للوجه، ولكن دقّ للصدر– لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: وصكت وجهها علم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها"[1]. ثم تحدث عن أننا ما زلنا بعيدين عن المسرح اللغوي الذي قالت فيه هذه المرأة هذا الكلام، ولم نشاهده، ولو أننا شاهدناها لكنا بها أعرف، ولكان إدراكنا لعظم الحال في نفس هذه المرأة أبين، ثم استشهد بالمثل القائل: ليس المخبَر كالمعاين.

ومن أمثلة اقتران الإشارة بالعبارة أيضا تلك القصة وردت في أخبار الحجاج بن يوسف ذلك أنه: حين دخل الحجاج العراق جلس على المنبر

(١) ابن جني، الخصائص، ١/ ٧١، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠م.

ملثمًا، وأرسل فجمع الناس، وجلس ينظر إليهم ولا يتكلم، حتى رموه بالحصباء، ثم قام فكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وهذه الطريقة التي اتبعها الحجاج مع أهل العراق لغة جسدية فعلية قبل أن تكون كلامية. "أراد تمرير رسالة تهديد ووعيد، أعربت عنها حركة العمامة واطراحها؛ إذ يغدو صاحبها حاسر الرأس، وهي الجد والتشاغل عنها بهم"(١). ومثل ذلك قول الهذلي:

رفوني وقالوا: يا خويلد لا ترع فقلت -وأنكرت الوجوه- هم هم

يقول ابن جني: "أفلا ترى إلى اعتبار بمضاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما في النفوس. وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة"(٢).

وقد أطلت الحديث في بيان اقتران الإشارة بالعبارة لكي أثبت أن الإشارة لها دور لا ينكر في بيان الكلام أو الدلالة على معنى ما كان ليؤدَّى دون حركة الجسد التي صاحبته، أو بلفظ آخر: إن النطق -في المسرح الكلامي- كان له مهمة قام بأدائها، وإن الجسد كان له مهمة قام بأدائها فلم يطغ النطق على حركة الجسد، وكما كان الكلام مفصحا عما يتصل بالمعاني والأفكار كانت حركات الجسد ناقلة ومعبرة عن العواطف والمشاعر المصاحبة للنطق.

لغة الجسد المستقلة بالتعبير: كما صاحبت الإشارة العبارة، وقامت بدور مهم في نقل المشاعر والأحاسيس إلى جانب الدلالة نجد هذه الإشارات تستقل بالجانب الدلالي فتفهم المتلقي ما يريده المشير، وما ينطوي عليه كلام من معان قصدها. يقول الجاحظ: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي

(١) مهدي أسعد عرار، البيان بلا لسان، ٨٥، مرجع سابق. ونقل ذلك بو ضياف محمد الصالح في بحثه: لغة الجسد في التراث البلاغي الجاحظ نموذجا، ص ٦٠، مجلة الملتقى، المغرب، العدد ٣٠، ٢٠١٤م.

(٢) ابن جني، الخصائص، ٢٠٧، مرجع سابق.

له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[١]

ومن أمثلة استقلال لغة الجسد بالدلالة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾ {المنافقون ٥}. ويبدو هنا دور الحركة الجسدية واضحًا حيث يطلب منهم أن يذهبوا إلى رسول الله ليستغفر لهم بعد أن انفضح نفاقهم، فلا يجيبون، وإنما يكتفون بهذه الحركة وهي تلوية رؤوسهم، وذكر الطبرسي في هذه الحركة معنيين متقاربين: الأول: أنهم أكثروا تحريكها بالهزء لها استهزاء بدعائهم إلى ذلك. والمعنى الثاني: أنهم أمالوها إعراضا عن الحق، وكراهة لذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك لكفرهم واستكبارهم[٢]. لقد قامت هذه الحركة مقام الكلام؛ فقد وُجِّه إلى المنافقين القول، فكان ردهم بلغة الحركة لا بلغة اللسان، ولعلهم حين تركوا الرد باللغة وتحدثوا بلغة الحركة الجسدية لتحقيق أحد أمور ذكرها ابن عاشور وهي: "لأنهم ثابتون على النفاق، أو لأنهم غيرُ راجعين فيما قالوه من كلام بَذيء في جانب المسلمين، أو لئلا يُلزموا بالاعتراف بما نسب إليهم من النفاق"[٣]. وذكر معنى: لووا رؤوسهم بمعنى أمالوها إلى جانب آخر يغاير اتجاه المتكلم الذي طلب منهم الذهاب إلى النبي الكريم، بقصد الإعراض عن الكلام وعدم تنفيذ طلبه.

إن الحركة التي قام بها هؤلاء المنافقون تؤكد القاعدة الأصولية التي تقول: "إن السكوت في موضع الحاجة بيان"[٤]. وهذه القاعدة نص عليها

(١) ابن جني، الخصائص، ص ٦٠، مرجع سابق.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، ج١٠/ ص١٥، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

(٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨/ ص٢٤٤، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

(٤) محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي (١١٧٦ه)، مجامع الحقائق، ٤٥، نقلا عن: أحمد محمد السراج، قاعدة: "لا ينسب لساكت قول ولكن السكوت في معرض الحاجة بيان" وتطبيقاتها الفقهية، ص١٢، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية (كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، مج ٧ العدد ١٩، ٢٠١١م).

الحنفية في أصولهم يقول الدكتور علي الندوي: "... فكما تدرك المعاني، وتستخرج الأحكام من الألفاظ والعبارات تؤخذ من السكوت لدلالة القرائن المرجحة ... وفق اصطلاحات الأصوليين من الحنفية"(١). فهناك طلب من المنافقين أن يأتوا ليستغفر لهم رسول الله، وهذا موضع حاجة إلى بيان موقفهم من هذا الطلب، ليعبروا بألسنتهم، فإذا بهم يتركون بيان اللسان ليكون التعبير بلغة أخرى هي لغة الجسد ﴿لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾.

ومن أمثلة استقلال لغة الجسد بالدلالة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ والمنافقون المذكورون لهم حالان: الحال الأولى إذا جاء الخوف والثانية إذا ذهب الخوف، وعم الأمن. في الحالة الأولى تدور أعينهم جبنا وخورا كأن أحدهم قد تغشاه الموت، وذلك لتوقع القتل من كل جهة بسبب الجبن، وحب الدنيا، وكراهية الموت. وفي الحالة الثانية يتحولون إلى شجعان بالكلام يسلقون المؤمنين بألسنة حادة، ولهجة قاسية. فهم في الحالة الثانية متكلمون لبقون، يلحقون بالمسلمين كل نقيصة، وفي الحالة الأولى مبهوتون خرسى من الجبن والخور. فالموقف الأول تغني فيه عن لغة الكلام لغة الجسد لتقوم بدور اللسان، وتعبر عما في القلب من الرعب، وتوقي الموت، وهذا موقف بديل عن اللغة والبيان الذي تكفل به الجسد. فقامت الحركة الجسدية مقام البيان واستقلت بالدلالة. وفي الآية مقابلة بين حالتين لهؤلاء المنافقين: حالة الأمن وحالة الخوف، وقد تباين رد فعلهم في الحالتين؛ فكانوا في حال السلم والأمن شجعان القول، وفي حال الخوف جبناء خوارين، على حد قول المتنبي:

إن حاربوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وهؤلاء لم يحاربوا، وإنما دخلهم الرعب بمجرد مجيء الخوف.

(١) د. علي الندوي، القواعد الفقهية، ٤١٩، دار القلم، ط ٣، ١٤١٤هـ.

ومثل الآية السابقة في وجود المقابلة البلاغية قوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ {آل عمران ١١٩} في الحالة الأولى يداهنون المؤمنين بادعاء الإيمان، ثم في حال خلوهم بأنفسهم أو بأصحابهم يعضون الأنامل، وهذه حركة جسدية توحي بالغل والغيظ، وتمني المكروه مع عدم القدرة على الجهر بذلك، وقد اجتمع في الآية مقابلة وكناية، وقرينة الكناية متسامحة؛ فيجوز أن يكون منهم عض للأنامل من الغيظ، كما يجوز أن يكون ذلك غير مراد، والمراد بيان اختلاف ظاهرهم عن باطنهم؛ حيث يجهرون بقولهم: آمنا وهم يبطنون كفرا ورغبة في أذى المسلمين. ويلاحظ أن الحركة قد استقلت بالدلالة في مقابل القول في الحالة الأولى.

ومن أمثلة استقلال الحركة بالدلالة قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) {نوح ٧} ودعوة نوح تكون باللسان والبيان، ويستلزم ذلك الرد منهم عليه قبولا لهذه الدعوة أو ردًّا لها، لكنهم اتخذوا طريقة للرد تخالف الموقف وهي لغة الجسد، وقد كانوا قاصدين إلى هذه المخالفة فإن لها أثرًا كبيرا في نفس الداعي، وهو دليل استهزاء وعدم اكتراث حتى يصل الداعي إلى مرحلة الضجر، وعدم تكرار الدعوة، إنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم، واستعمال الإصبع بدلا من الأنملة يفيد مبالغة في الصد، والرغبة في عدم السماع، وينضاف إلى عدم السماع عدم الرؤية، فهم يريدون عدم رؤيته وعدم سماعه. وهذا من شدة الكفر، وغلظة الرد، وتمني موته؛ حتى لا يسمعوا منه، ولا يعطوا لعقولهم فرصة لكي تفكر فيما تسمع وترى. لقد لجأ هؤلاء الكفار إلى لغة الجسد كبرا وعنادا وتنفيرا لصاحب الدعوة حتى يترك دعوتهم. وقد قامت لغة الجسد أو الحركة بما تقوم به اللغة من البيان والتوضيح.

ومن استقلال الحركة بالدلالة في الحديث النبوي ما ورد في قصة الثلاثة الذين خلفوا، وما كان من قصة توبة الله على كعب بن مالك، يقول

كعب: "... وكان رسول الله إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه"(١). وقد كان الصحابة يعرفون الحب والبغض، والموافقة والرفض من وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد قال كعب: وكنا نعرف ذلك منه. فهو أمر معروف ومشهور، حيث تقوم لغة جسده الشريف بالبيان بدلا من اللسان. والأمثلة كثيرة سبق ذكر طرف منها في دلالات السكوت في المبحث الأول.

ومن استقلال الحركة بالدلالة في الشعر العربي ما ذكره ابن جني في قول الشاعر:

وقالت له العينان سمعًا وطاعة وأبدت كمثل الدرّ لما يثقب(٢)

فقد استقلت العين هنا بالدلالة، ففهم منها المخاطب معنى السمع والطاعة، على الرغم من أن اللسان لم ينطق، وهذه النظرة أوحت بالاطمئنان، وقد جعل الشاعر نظرة العين نطقا وقولا؛ لأن نظرتها أوحت بذلك. وكذلك قول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيَّم

وقد جعل الشاعر أيضا الطرف ناطقا متكلما، كما جعله الشاعر السابق، وقد عبر عن عاطفة الحب بما قال، ويلاحظ أن اللسان لم ينطق نصًّا من الشاعر على عدم نطقه، خيفة من أهلها، لكن الطرف قد قال كلاماً كثيرا، وهذا ما دفع ابن رشيق إلى أن يعيب الشاعر: "إذ كان هذا كله مما لا تحمله إشارة خائف مذعور"(٣). ومثله في النص على عدم النطق باللسان مع نطق العينين قول الشاعر:

---

(١) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم الحديث 3363، دار الريان للتراث، ١٩٨٦م.

(٢) ابن جني، الخصائص، ١/ ٢٥، مرجع سابق.

(٣) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١/ ٣١٠، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م.

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والأفـــواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وهنا قامت العين بالتبيان عما يكنه القلب من الحب أو البغض، فظهر ذلك من خلال العين، وقد بدا أن اللغة الجسدية وحدها هي التي تقوم بـــدور البيان والدلالة كما في قول الشاعر:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

وليلى هنا هي الأخيلية، وقد سألها الحجاج عن ســـبب ســـفورها لـــه فقالت: كان يلم بي كثيرا، وفطن الحي فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت عـــن وجهي، فعلم أن ذلك لِشَرّ، فلم يزد على التسليم والرجوع[1]. وحركة الجسد هنا كانت دالة على ما يراد به من شر، إذ إن الحرة الكريمة لا تسفر عـــن وجهها إلا لأمر عظيم، وفهم الشاعر ذلك فرجع، فلم يفطن إليه أهل الحي.

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٢/ ٤١٠، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٧ه.

الخاتمة

بعد رحلة طويلة مع ثنائية الصمت والكلام، وما يكمن في الصمت من الدلالة والبيان، كما يظهر في الكلام، كانت هذه الدراسة التي سعت إلى أن تثبت أن في الصمت –الذي ليس عيًّا ولا حَصَرًا– دلالةً على معان تقوم بما يقوم به الكلام من الإبلاغ والتوضيح، كما ينطوي الصمت على نكات بلاغية تكمن وراء الاختيار الواعي من الصامت حين كان مخيَّرًا بين الكلام والصمت، فاختار الصمت على الصوت، ملمحًا لما تنطوي عليه دلالة الصمت من إبلاغ يفوق الكلام. وقد دارت الدراسة حول ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة ونتائج. وقد تحدثتْ في التمهيد عن الصمت والسكوت، وهل ثمة فرق بينهما؟ ولم ترجح الدراسة التفريق بينهما؛ حيث إن الفروق التي ذكرها الدارسون لم تكن مقنعة فلم تر الدراسة فرقا بينهما، خاصة أن المعاجم فسرت الصمت بالسكوت، والسكوت بالصمت. ثم تحدثت عن جدلية الصمت والكلام، وما ورد في تراثنا من تفضيل أحدهما على الآخر وأن ذلك كان وفق الرؤية التي ينظر منها؛ فإذا كان الكاتب متحدثا عن تفضيل الله للإنسان بالنطق والبيان فضل الكلام على الصمت، وإذا أراد تزهيد الناس في الدنيا وأراد منهم الاهتمام بالآخرة فضل الصمت، وهكذا يكون اختلاف الرؤية حاكما في قضية تفضيل أحدهما على الآخر. ثم وضعت الدراسة محددات للسير وفق ضوابط تحكم الحديث في بلاغة الصمت، منها: أنه ليس كل صمت بياناً، ولهذا استبعدتْ الدراسة نوعًا من الصمت يرتبط بعيب النطق وهو العي والحصر، ويلحق به ما سماه الجاحظ: عيوب البيان كاللثغة والفأفأة والتمتمة واللفف واللجاجة والحبسة والحكلة والنحنحة والسعلة ... إلخ. وثاني المحددات: أن الصمت في موضعه أنفع من الكلام في موضعه، فما أغنى فيه السكوت عن البيان يترجح فيه السكوت اختصارا وسلامة من المآخذ الدينية والدنيوية. وثالث المحددات: ضرورة أن يشتمل مسرح الخطاب على قرينة تنطق بدلالة الصمت وما يشتمل عليه من إبلاغ. والرابع: أن هناك فرقا بين الصمت اللغوي والصمت الخطابي؛ فالصمت

اللغوي يقع في حدود الجملة الواحدة وهو ما اصطلح عليه باسم الحذف. أما الصمت الخطابي فهو خطة خطابية يلجأ إليها المرسل ليحقق بالصمت ما لم يقدر على تحقيقه بالكلام. وتناولت الدراسة في المبحث الأول: دلالات الصمت؛ ومنها الرضا والقبول ، ومنها الرفض والاعتراض، ومنها الهيبة والتوقير، ومنها الأدب الجم، ومنها الانقطاع والإفحام، ومنها الحزن والجزع، وغيرها كثير، وقد أشارت الدراسة إلى أن دلالات الصمت لا يمكن حصرها؛ ذلك أن الإبداع متجدد، ومثله الصمت في موضعه متجدد كذلك. وفي المبحث الثاني تناولت الدراسة حجاجية الصمت؛ فالصمت عبارة عن خطة أو استراتيجية يختارها الصامت فهل يكمن هدف حجاجي وراء هذا الصمت؟ وأوضحت الدراسة أن الحجاج له هدف إقناعي، والصمت حين يختاره المرسل يكون له هدف يترجح على النطق وبالتالي يحدث به الإقناع فيحقق الغرض الحجاجي، وذكرت الدراسة دور كل ركن من أركان الرسالة التواصلية في الحجاج بالصمت، فركزت على دور المرسل، والمستقبل، والرسالة في هذا الغرض، وذكرت مثالين لحجاجية الصمت. وتناول المبحث الثالث: الصمت ولغة الجسد؛ إذ إنه في حالة الصمت تتم عملية التواصل من خلال حركات الجسد، فيكون التعبير بها بديلا للغة المنطوقة. غير أن هذا التعبير بلغة الجسد يأخذ طريقين: أحدهما أن تكون لغة الجسد مصاحبة للغة المنطوقة لكن حركة الجسد تكمل ما لم تَقُلْه لغة اللسان. والثاني: أن تستقل لغة الجسد بالدلالة دون اللغة المنطوقة. ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن ثنائية الكلام /الصمت ستظل مفتوحة للدرس والبحث بناء على وجهة المرسل التي ينطلق منها، وهي التي تحدد إن كان من أنصار الصمت أو من أنصار الكلام. وأن الصمت الاختياري هو استراتيجية يلجأ إليها المرسل بناء على اختيار واع للصمت على الكلام، وهنا نبحث في دوافعه لنقف على مدى بلاغته. وللصمت هيبة يلقيها على الصامت، الذي يقدر على الكلام، ويتركه اختيارا. وأن الصامت يعتمد على ذكاء المتلقي ليؤول سبب صمته، ودوافعه وراء هذا الصمت المقصود. وقد فرقت الدراسة بين

الصمت اللغوي والصمت الخطابي، وأن الصمت الخطابي هو الذي تكمن وراءه الدلالات البلاغية التي تكون اختيارا واعيا للمرسل. وقد تعددت دلالات الصمت البلاغية التي تتوقف على المسرح التواصلي الذي تتحقق فيه هذه الدلالات. وأن الحجاج قد يكون بالصمت كما يكون بالكلام؛ وذلك إذا كان الصمت من مرسل ذكي في موقف تواصلي معين، وقام بتأويله متلق ذكي أيضا. كما أن الجسد له لغة تشبه اللغة المنطوقة في الدلالة، وإذا كانت لغة الكلام تنقل الأفكار فلغة الجسد تنقل العواطف والأحاسيس. وكثيرا ما يصاحب الصمت الخطابي حركة من حركات الجسد تعبر عن موقف الصامت تجاه الخطاب الموجه إليه. وهي لغة لا تكذب ولو كذب اللسان. ويمكن إجمالا أن نقرر ما قرره علماء الأصول من أن: السكوت في موضع الحاجة بيان.

وهناك نتائج أخرى مبثوثة في الدراسة، أرجو أن أكون قد حققت الغرض الذي من أجله جعلت، وأسأل الله التوفيق والسداد فهو ولي ذلك والقادر عليه.

المصادر والمراجع

١.الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ت.

٢.الاختزال في النادرة: صمت كلام أم صمت بيان؟ نوادر البخلاء للجاحظ أنموذجا، علي البوجديدي، الورشة الخامسة، أبحاث في الفكاهة والسخرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، المغرب، ٢٠١٤م.

٣.استراتيجيات السكوت والإسكات في الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء المعري وداعي الدعاة الفاطمي، د. عبد الله البهلول، وقائع ندوة قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، ٢٠٠٩م.

٤.الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، السيوطي، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢١ه.

٥.الأغاني، الأصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٦.بارتلبي النساخ، هرمان ملفل، ترجمة: زوينة آل تويّه، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، ٢٠١٠م.

٧.بلاغة الإشارة بين النظرية والتطبيق، د. سعيد أحمد جمعة، بحث منشور على الشبكة الدولية "Internet من موقع أهل الحديث : http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=394 .37

٨.بلاغة الحجاج، محمد الولي، مجلة علامات، المغرب، العدد ٥، ١٩٩٦م.

٩.بلاغة الحذف في القرآن الكريم، د. إبراهيم عبد الفتاح رمضان، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.

١٠.البيان بلا لسان، مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

١١.البيان والتبيين، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م.

١٢.تأويل لغة الجسد داخل اللاوعي الثقافي العربي، علي زيعور، العدد : ع 54,55 ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1988م.
١٣.تجليات الصمت في رواية علي عشا، د. زهير محمود عبيدات، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلد ٢، العدد ٣، ٢٠٠٦م.
١٤.التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
١٥.تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، عبد الوهاب عبد اللطيف، مطبعة دار الفكر، د.ت.
١٦.جدلية الصمت والكلام في التراث العربي، عبد الله بن سالم الخلف، منشور في مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، السعودية، مجلد ٣، العدد٢، ٢٠١٠م.
١٧.الجسد اللغة وسلطة الأشكال، سعيد بن كراد، العدد ٤، مجلة علامات، المغرب، 1995م.
١٨.جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٧ه.
١٩.الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠م.
٢٠.دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٢١.ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
٢٢.رسائل الجاحظ: الرسائل السياسية، الجاحظ، ت: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢٣.سكوت النبي -صلى الله عليه وسلم- ودلالته على الحكم الشرعي، يونس يزدان برست، ٣٥٢، مجلة الحكمة السعودية، العدد ٤٤، ٢٠١١م.

٢٤.شرح النووي على مسلم، يحيي بن شرف أبو زكريا النووي، دار الخير، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
٢٥.شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦ه.
٢٦.صمت البحر، فيركور، ترجمة: وحيد النقاش، صدرت مع سداسية الأيام الستة لإميل حبيبي عن مأساة يونيو ١٩٦٧م في العدد ٢٤٦، من روايات الهلال، ١٩٦٩م.
٢٧.الصمت سياسة في القول، د. عبد الله البهلول، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية التي أقيمت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس تونس، وكان عنوانها: الصمت، ٢٠٠٧م.
٢٨.الصمت وتأويله، محمد الشيباني، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية: (الصمت) المقامة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، إبريل ٢٠٠٧م.
٢٩.الصمت: أنواعه ووظائفه في الشعر العربي الحديث، أعمال الندوة العلمية الدولية: الصمت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، أحمد الجوة، ٢٠٠٧م.
٣٠.العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ه.
٣١.العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣٢.عن الصمت والأدب، سيزا قاسم، عدد ٨١- ٨٢، مجلة فصول، مصر، صيف ٢٠١٢م.
٣٣.عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
٣٤.غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، دار الكتب العلمية، ١٤١٦ه.

٣٥.الغموض الفني في البلاغة العربية، إبراهيم عبد الفتاح رمضان، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سبتمبر، ٢٠٠٩م.
٣٦.فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار الريان للتراث، ١٩٨٦م.
٣٧.الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط١٣، د.ت.
٣٨.قاعدة: "لا ينسب لساكت قول ولكن السكوت في معرض الحاجة بيان" وتطبيقاتها الفقهية، أحمد محمد السراج، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، مج ٧ العدد ١٩، ٢٠١١م.
٣٩.القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، د. محمد مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٤٠.القواعد الفقهية، د: علي الندوي، دار القلم، ط٣، ١٤١٤هـ.
٤١.كتاب في المنطق، أبو نصر الفارابي، ت: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
٤٢.كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ت: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٤٣.لسان العرب، ابن منظور، طبعة دار صادر، ٢٠٠٣م.
٤٤.لغة الجسد بين دلالات الحركة وشاعرية التوظيف، مجدي عبد المعروف حسين أحمد، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الزعيم الأزهري، السودان، العدد الثاني، ٢٠١٥م.
٤٥.لغة الجسد في التراث البلاغي الجاحظ نموذجا، بوضياف محمد الصالح، مجلة الملتقى، المغرب، العدد ٣٠، ٢٠١٤م.

٤٦.لغة الجسد في التراث العربي، خالد عبد الرؤوف الجبر، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، العـــدد ٣٦، حزيـــران ٢٠١٥م.
٤٧.لغة الجسد في القرآن الكريم، عمر عبد الهادي عتيق، المجلة الأردنيـــة في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، الأردن، المجلد التاسع، العدد ١، ٢٠١٣م.
٤٨.اللغة الصامتة: الجسد الاصطناعي، ألينا ماريا هريشكا، مجلة إضافات (مجلة عربية في علم الاجتماع)، لبنان، ترجمة: مازن مرسول محمد، العدد ٢٨، خريف ٢٠١٤م.
٤٩.مجمع البيان، الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
٥٠.المستطرف في كل فن مستظرف، الإبشيهي، ت: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
٥١.مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ت: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.
٥٢.المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عـــدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـــ.
٥٣.مؤلفات مصطفى لطفي المنفلـــوطي الكاملـــة الموضـــوعة (النظـــرات والعبرات)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م.